شوقي

أنطون الجميِّل



شوقي

شوقي

تأليف
أنطون الجميِّل

هنــداوي

شوقي

أنطون الجميِّل

رقم إيداع ٨٢٧٢ / ٢٠١٤
تدمك: ٧ ٨٠٩ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي.

المحتويات

شاعر الأمراء

عاش شاعرًا ومات شاعرًا

شاعريَّتُهُ ومميِّزاتُها



شوقي (في العهد الأخير).

أحمد شوقي

بعض مراحل حياته[1]

وُلد أحمد شوقي سنة ١٨٦٨.
دخل مكتب الشيخ صالح سنة ١٨٧٣.
خرج من المدرسة الخديوية ودخل مدرسة الحقوق سنة ١٨٨٣.
سافر إلى أوروبا لدرس الحقوق والأدب سنة ١٨٨٧.
عاد إلى مصر سنة ١٨٩١.
نُفي في الحرب إلى إسبانيا سنة ١٩١٥.
عاد من منفاه في أواخر سنة ١٩١٩.

مؤلفاته

رواية لادياس.
رواية ورقة الآس.
رواية علي بك الكبير.
مذكرات بنتاؤر.

---

[1] عن كتاب «١٢ عامًا مع أمير الشعراء» لسكرتيره أحمد عبد الوهاب أبي العز.

الشوقيات (الأولى).
الشوقيات – ٤ أجزاء.
رواية كليوباترا.
رواية مجنون ليلى.
رواية قمبيز.
رواية علي بك أو دولة المماليك.
رواية عنترة.
رواية أميرة الأندلس.
أسواق الذهب.
عظماء الإسلام.
رواية السيدة هدى.
رواية البخيلة.

كلُّ إنسانٍ يستطيبُ الثناءَ، ولكنَّ الأديبَ والشاعرَ، والمفكرين عامةً، يغتبطون بانتشار أفكارِهم وترديد أقوالهم أكثر من اغتباطهم بالثناء عليهم.

وقد أشار الفيلسوف الألماني نيتشه إلى ذلك إذ قال: «أصغيتُ إليهم لعلِّي أسمع صدى صوتي؛ فلم يصل إلى أُذني إلَّا صدى تصفيقهم.»

ولقد حاولنا في هذه الدراسات التحليلية عن «شوقي» أن نُسمِعَهُ صدى أقواله، بالاستشهادِ بالكثير من شعرهِ تأييدًا لما قلنا عنه.

أ. ج.

شوقي شاعر الأمراء[1]

ما عرفنا شاعرًا صيغ له من قلائد المدح، ونُظم فيه من عقود الثناء، ما صيغ ونُظِم في شوقي: فهو الملقَّب بأمير الشعراء، وكلُّ قصيدةٍ له تُنعت بالعصماء، وكلُّ منظومةٍ من منظوماته تُعَدُّ شوقيةً غراء، كلماتُه الدر النظيم، ومعانيه الجوهر اليتيم، هكذا تصفه سيارة الصحف، وهكذا يقول فيه رواة شعره.

ولقد استحقَّ الكثيرَ من هذا الوصف: فهو شاعرُ الغزل والنسيب، وناظمُ الحوادثِ والتاريخ، صاحبُ الحِكم الرائعة والأمثال الذائعة، ترجمانُ العاطفة الوطنية والذائدُ عن العقيدة الدينية، مُحيي دارس الآثار ومستنهضُ الهِمم إلى الأعمال الكبار، الداعي إلى الاتحاد والوئام والمستخلصُ خالد الحقائق من الأحلام.

ومَن كان هذا شأنه يصعبُ أن يتناولَه البحثُ في عُجالةٍ موجزة؛ لذلك قصرنا بحثنا اليوم هذا على مظهرٍ من مظاهر شاعريته الجمة، وهو نزعتهُ السياسية وما طرأ عليها من التقلبات.

ولمَّا كان الكاتبون قد أفاضوا في الكلام عن شوقي «أمير الشعراء»، فقد أردنا أن نقولَ كلمةً عن شوقي «شاعر الأمراء»، وما تخيَّرنا طرْقَ هذا الموضوع الوعِر المطلب، الشاقِّ المسلك يوم تحتفي البلادُ العربية قاطبةً بتكريم الشاعر الكبير، إلَّا لأن البعض ما زال يهمسُ به همسًا دون التعرُّض له بالبحث والتحليل، ويشير إليه من باب التلميح لا من باب التصريح، وإذا كان من مستلزمات التكريم إذاعةُ المناقب، فقد يكون من مستوجباته

[1] نشر هذا البحث في «السياسة الأسبوعية» (٣٠ أبريل سنة ١٩٢٧) بالعدد الخاص بتكريم شوقي.

كذلك دفع بعض التهم؛ ليكون التكريم تامًّا كاملًا، لا تشوبه شائبة، وعلى كلٍّ فما خلا مخلوقٌ من تهمةٍ مهما علا قدره، بل قد تزيدُ التهمُ حولَه كلما علا قدره: كفى المرءَ نُبلًا أن تُعدَّ معايبُهْ.

قالوا: إذا لُقِّب شوقي بأمير الشعراء؛ فلأنه كان شاعرَ الأمراء، على قاعدة القلب المعروفة عند العرب.

مدح أقيالَ مصر من إسماعيل إلى توفيق إلى عباس إلى حسين إلى فؤاد، وكثيرًا ما ذهبَ صعودًا من الأحفادِ إلى الأجداد، فتطرَّق إلى مدح سعيد وإبراهيم ومحمد علي، بل رجع إلى التاريخ القديم يُقلِّب صفحاتِه، فيمدح سلاطين مصر وخلفاءها وفراعينها، ويتغنَّى بمآثرهم ويشدو بآثارهم، مُجيدًا في مدحِهم جميعًا.

وكذلك كان شأنُهُ مع سلاطينِ بني عثمان الذين تعاقبوا على عهده: فكما مدح عبد الحميد أطرى رشادًا؛ وكما أطرى رشادًا أشاد بمحمد الخامس، وكما تغنى بعظمة السلاطين والخواقين، تغنى بأبطال الحرية والدستور العثماني، وكما أطنب بذكر سلاطين الأستانة أطنب بذكر رجال أنقرة.

فكان من وراء ذلك أن اتَّهمَهُ البعضُ في صحَّة عقيدته السياسية، وشكَّ في نزاهة مبدئه الاجتماعي، وقيلت عنه أحيانًا كلماتُ الزلفى والتملُّق، فزعموا أنَّه مدَّاح السلطة، أيةً كانت السلطة، ومطري القائمين بالأمر، أيًّا كان القائمون بالأمر.

تهمةٌ لا تقومُ على أساسٍ إذا حلَّلنا نفسية شوقي، وتشكُّكٌ يضمحِلُّ من نفسه إذا نظرنا إلى الحوادث والأحوال التي أحاطت بالشاعر، فحملته على تغيير اسم الممدوح دون أن يُغيِّرَ مطلبَهُ من المدح، وعلى تبديل العنوان دون أن يبدِّل ما تحت العنوان، فالنصائح هي هي مهما تغيرت المدائح، وهو القائل:

ولي غرَرُ الأخلاق في المدح والهوى

خَدَم الحريَّةَ؛ لأنَّه أحبَّها، ودعا إلى الإصلاح؛ لأنَّه لمسَ الحاجةَ إليه، وقال بوجوب نشر العلم ومكارم الأخلاق؛ لأنَّه عرف أنها أساسُ العمران، ومن أجلِ ذلك خدم السلطةَ؛ لأنه رآها واجبةً لازمة لتحقيق جميع تلك المطالب.

لا يصلحُ القوم فوضى لا سراةَ لهم ولا سـراةَ إذا جـهَّـالـهـم سـادوا

مدح جميعَ من ذكرنا من الملوكِ والأمراء، ولكنَّه نصح لكلٍّ منهم بالإصلاح، واحترام الحرية والعمل على ترقية البلاد، وحسن سياسة العباد، ورفع منار العلم، وهو يرى أنَّ جميع هذه الأمور لا تتمُّ في الشرق إلَّا على أيدي القائمين بالأمر فيه؛ لأنَّ الإصلاحَ إذا كان محققًا ولا محالة، كما يقولون، إمَّا من الأعلى وهو التحوُّل، وإمَّا من الأدنى وهو الثورة، فهو يريدُه عن طريق التحوُّل، أي من الأعلى على يد صاحب السلطان، هذه هي نظريتهُ الاجتماعية، فهو يطلبُ الخيرَ لهذا المجتمع الشرقي عن هذه الطريق.

ولا جَالَ إلَّا الخيرُ بين سرائري لـدى شـدَّةٍ خـيـريَّـةِ الـرغـبـاتِ

يمدحُ الخديو عباسًا، ولكنه يقول له:

لا يُظهر الكبراءُ آيَةَ عزِّهم حتـى يُـعزُّوا آيَةَ الأفـكار

ويذكِّره وهو يفتتح الجامعة المصرية أنَّ:

ترك النفوس بلا علمٍ ولا أدبٍ ترك المريض بلا طبٍّ ولا آسِ

وإذا قال لتوفيق:

لك مصرُ يجرِي تحت عرشِكَ نيلُها ولـك الـبـلادُ عـريـضُـهـا وطـويـلـهـا

فقد قال له في القصيدة نفسها:

كانت خزائن مُلكها بيد البلى نهبًا مباحًا للرقيب دخولُها
ألقت مفاتِحَها إليك فأصبحتْ يزنُ الزمانُ كنوزَها ويكيلُها

وإذا مدح إسماعيل أنصفه في قوله:

لم يرَ الناسُ مثلَ أيام نعما ك زمانًا ولا كبؤسك عهدا
كنتَ إن شئتَ بُدِّل السعدُ نحسًا وإذا شئت بُدِّل النحس سعدا

وإذا مدح الملك فؤاد عقَّب على المدح بقوله:

إنْ سرَّك الملكُ تَبنيهِ على أُسُسٍ فاستنهضِ البانيَين العلمَ والأدبا
وارفعْ له من حبالِ الحقِّ قاعدة ومدَّ من سبب الشُّورى لها طُنُبا

يدعو الأزهريين إلى الالتفاف حول العرش:

كونوا سياج العرش والتمسوا له نصرًا من الملك العزيز مؤزَّرا

ولكنه يعلق على ذلك بقوله:

وتفيئوا الدستور تحت ظلاله كنفًا أهشَّ من الرياض وأنضرا

فماذا يهمنا اسم الممدوح؟ وماذا يهمُّ، بنوع خاص، الأجيالَ القادمة؟ إذا كان المدحُ ينطوي على مثلِ هذه العظاتِ والحِكم البالغة، فليمدحِ الشاعرُ من شاء من الملوك ما دام يقول له:

والعدل في الدولات أُسٌّ ثابتٌ يُفْنِي الزمانَ ويُنفِدُ الأجيالا

أو ما دام يهيب به:

إن ملكتَ النفوسَ فابغِ رضاها فلها ثورةٌ وفيها مضاءُ
يسكنُ الوحشُ للوثوب من الأسـ ـرِ فكيف الخلائقُ العقلاءُ

ألا يحتاج الشاعر — كما يحتاج الحكيم — إلى الحيلة ليحمل حملَتَهُ على روح الاستبداد كما يفعل شوقي مشيرًا إلى توت عنخ آمون:

المستبِدُّ يُطاقُ في ناووسِهِ لا تحت تاجيهِ وفوق وثابِهِ[2]
والفرد يؤمن شرُّهُ في قبره كالسيف نام الشرُّ خلف قرابِهِ

ألا يُعَدُّ الشاعرُ أبلغ مرشدٍ وأهدى هادٍ — في مدح الملوك — إذا عرف أن يقول كشوقي:

زمانُ الفردِ يا فرعونُ ولَّى ودالت دولةُ المتجبرينا
وأصبحتِ الرعاة بكل أرضٍ على حكم الرعية نازلينا
فؤاد أجلُّ بالدستور دنيا وأشرفُ منك بالإسلام دينا
بنى «الدار»[3] التي لا عزَّ إلَّا على جنباتها للمالكينا
ولا استقلال إلَّا في ذراها لمتبوعٍ ولا للتابعينا

أليس من البراعة أن تمدح المرءَ بمَحْمَدَةٍ لتُحبِّبها إليها، وأن تذمَّ له منقصةً لتكرِّهه فيها؟ أليس ذلك ما فعله شوقي في قوله للسلطان محمد رشاد:

جدَّدتَ عهد «الراشدين» بسيرةٍ نسجَ الرشادُ لها على منوالِه
بُنِيَت على الشورى كصالح حكمهم وعلى حياةِ الرأي واستقلالِه

وفي قوله:

وإذا سبا الفردُ المسلَّطُ مجلسًا ألفيتَ أحرارَ الرجال عبيدا

[2] الوثاب: السرير الذي لا يبرح الملك عليه.
[3] دار النيابة.

بمثل هذا مدح شوقي الملوكَ والأمراءَ، متخذًا المديح في أغلب الأحيان وسيلةً لطلب العدل والإنصاف في الرعية، ولتمجيد الشورى والحرية، كما رأيت في ما ذكرنا وما تجد منه الشيء الكثير في سواه.

وهكذا لم يغيِّر عقيدتَهُ السياسية ومبدأه الاجتماعي، فهما هما في جميع مدائحه، وإن تبدَّل اسمُ الممدوح، والشاعر شاعرٌ أيًّا كان الرويُّ الذي يختارُه لقصيدته، ما دامت نفسهُ حساسةً وقريحتهُ فيَّاضة، وهل اسم الممدوح في جميع ما ذكرنا سوى الرويِّ؟

وقد قال هو نفسه:

جلالُ الملكِ أيَّامٌ وتَمضِي ولا يَمضِي جلالُ الخالدينا

ونعتقد أنه لا بُدَّ من شجاعةٍ في النفس للإقدام على ذلك، كما أنه لا بدَّ من كثير من البراعة والمرونة واللباقة لهذا التغيير في الشكل دون التغيير في الجوهر، حتى يتمَّ ذلك بلا تبجُّح ولا تعصُّبٍ للمبدأ الجديد، والتعصُّب كما هو معروف، ملازِمٌ عادةً لمن يذهبُ مذهبًا جديدًا في السياسة أو في الدين، وهذا ما عرف شوقي أن يتجنَّبَهُ، فإذا دعا إلى حكومةٍ جديدة، انقيادًا لصوت الشعب، فهو لا يُنكِرُ صداقاتِه القديمة، بل لا ينفضُ يَده من يد الذين لا يزالون على غير فكره، وإذا دالت دولةٌ من دول الشرق التي كان لها نصيبٌ من مدحه وتمجيده، فلا يرى وجوبَ النعي والنحيب والامتناع عن مجاراة الزمان، بل يبرزُ للدولة الجديدة مُطريًا مادحًا مع دعوةٍ إلى الإصلاح وإلى تحقيق ما لم يتحقَّق على عهد سالفتها، فخلاصة مبدئه: الترحيب بالحاضر مع احترام الماضي، وأتمُّ مثالٍ على ذلك قصائدُهُ في الأستانة وأنقرة، ورجالِ هذه ورجالِ تلك.

وهكذا يضربُ خيامَهُ في معسكرٍ غير الذي كان ضاربًا خيامَه فيه بالأمس، ولكن دون أن يحقَّ رميهُ بالجحودِ، أو اتهامهُ بالخيانة والمروق.

أأخونُ إسماعيلَ في أبنائه ولقد وُلِدتُ ببابِ إسماعيلا
ولبستُ نعمتَهُ ونعمةَ بيتهِ فلبستُ جَزْلًا وارتديتُ جميلا

ومَن نشأ كشوقي في عهدٍ كانت فيه مصرُ بين سلطان الفرد المتأصِّل في صدور الشرقيين وحكم الشورى النابت في عقولهم، ومَن رَبِيَ مثلهُ في قصورِ الأمراء وحلَّ ضيفًا على السلاطين، ثمَّ رأى كيف تنهار القصورُ وتثلُّ العروش، وكيف تُولَدُ الثورات فتهتزُّ

لها الأعصابُ اهتزازًا، وكيف يقومُ الدستورُ فيسكب على القلوب سلامًا ويثير في النفوس اعتزازًا، ومَن عرف كشوقي نعيم الحياةِ وبسطة الجاه، ثمَّ ذاق ألمَ النفي والإبعاد، لا يُستكثَر عليه أن يعرِفَ كيف يرتفعُ فوق الأشخاص ويسمو عن العرَض الزائل إلى الجوهر الخالد، فيمدح المَلِك لخير المملكة، ويمجِّد السلطانَ لخير السلطنة؛ لأن تجاريبَ الزمان زادت في استقلال عقلِه ووسعت دائرته للإحاطة بكل فكرة سامية. فإذا رأى في تلك الفكرة فائدةً لذلك الشرقِ الذي تغنَّى به، فلا يتأخَّرُ عن الإِشادة بها، ولو كانت من الأفكار التي لم يقُلْ بها فيما مضى، وهو في ذلك ليس بالجاحد ماضيه، ولا بالمنكر عقيدته، بل هو من طائفةِ الرجال الذين هذَّبهم الدهرُ وثقَّفهم، فأصبحوا يحدبون على وطنهم، ويتألمون لآلامه، فيطلبون له النجدةَ من أي جانبٍ بدَتْ، ولو من جانب الأفكار التي كانت بالأمس مغايرةً لأفكارهم؛ فلا ينعزلون في بُرجِ حقدِهم وغضبهم بحُجَّةِ الاحتفاظ بالمبدأ، بل يواصلون الجهادَ في خدمةِ وطنهم ولو تحت رايةٍ جديدة.

وعلى ذلك يمكن القولُ إنَّ مدائح شوقي صوَرٌ واستعاراتٌ شعرية، لا عقيدة سياسية، فإذا مدح الملوكَ والأمراءَ لا يمدحُ سلطتَهم المطلقة، ولا يراهم كما رآهم بعضُ قدماء الكتاب في الشرق والغرب من طينةٍ غير طينة البشر.

لا يقولنَّ امرؤٌ أصلي فما أصلُهُ مسكٌ وأصلُ الناسِ طينْ

وإذا غيَّر أسماءَ ممدوحيه، فإنه لا يغيِّر ما يقصدُ إليه من وراء المدح، فما ممدوحُه سوى الرويِّ في الشعر، لا يُنقِص من قيمةِ الشعر ولا من مبلغ مرماه الاجتماعي، وما كانت هذه التقلُّباتُ لتنتقص مجدَهُ في الزمن الآتي، وإن أراد البعضُ انتقاصَه في الزمن الحالي: فالأجيالُ الآتية لن تعرفَ شيئًا عن ضعفنا ويأسنا ووهن عزيمتنا، بل ستُدرِكُ كيف يستطيعُ المرءُ أن يُعدِّلَ رأيَه دون أَن يكون جاحدًا، ولا سيما في عهد الثورات الفكرية والانقلابات السياسية.

بل إنَّه لولا هذه التقلباتُ ما كان شوقي على ما هو الآن، فقد قال النقادة: «لا هارب La Harpe» ما معناه: «إنَّ في عصور الاضطرابات ما يُضعِفُ الحكوماتِ، وما يقوِّي الشعرَ والخطابة.»

فمن رأى كلَّ ما رآه شاعرُنا من الحوادثِ العظام يزدادُ احترامًا لكل ما من شأنه دعمُ السلطة والعقيدة، والقضاءُ على الفوضى في الأفكار، فلا يفهم المنازعات الحزبية، بل يدعو إلى الوئام والمسالمة، اسمعوه ينادي بأعلى صوته:

إلامَ الخلفُ بينكمُ إلاما　　وهذي الضَّجةُ الكبرى علاما
وفيمَ يكيد بعضكم لبعض　　وتبدون العداوة والخصاما

أو يقول:

وإذا دعوتُ إلى الوئام فشاعرٌ　　أَقصى مناهُ محبةٌ وسلامُ

ودَعْوَتُهُ إلى الوئام جامعةٌ شاملة، فهي تتناول الأديانَ كما تتناولُ الأحزاب، فما قاله في «موسى والمسيح وأحمد» لم يقله شاعر قبله.

وإذا كنَّا لا نلومه لقوله الآن:

اهجروا الخمرَ تُطيعوا الله　　أو تُرضوا الكتابا
إنها رجسٌ فطوبى　　لامرئٍ كفَّ وتابا

بعد أن كان قد قال في صباه:

رمضانُ ولَّى هاتِها يا ساقي　　مشتاقةً تسعَى إلى مشتاق

فعلامَ نلومه؛ لأنَّه قال في سوى ذلك غيرَ ما قاله بالأمس؟

وهذا الشاعر الأرستقراطي الذي يجوز بحقٍّ تلقيبه بشاعر الملوك والأمراء، كان أيضًا شاعرَ الشعب فتغنَّى بأبنائه العصاميين ودافع عن حقوقه فقال:

سُخِّر الناسُ وإن لم يشعروا　　لقويٍّ أو غنيٍّ أو مبينْ
والجماعاتُ ثنايا المرتقى　　في المعالي وجسورُ العابرين

وخاطب العمَّالَ بقوله:

قد دعاكم ذَنَبَ الهيئةِ داعٍ فأَصابا
هي طاووسٌ وهل أَحسَنُهُ إلا الذنابا

ولا يتبادر إلى ذهننا أن هذا التغيير يتمُّ عنده بلا نزاعٍ ولا تردُّد بين الماضي الحاضر، فهو يقول تارة:

لا تحذُ حذوَ عصابةٍ مفتونةٍ   يجدون كلَّ قديمِ شيءٍ منْكرا

ويقول أخرى:

الهدم أجملُ من بنايةِ مصلح   يبني على الأُسُسِ العتاقِ جديدا

وصفوةُ القول: إنَّ شعرَهُ مرآةٌ للرأي العام، وتَبَعٌ لتقلُّباتِ الحوادث يُسجِّلُها فيه ويرويها في تلك القصائد التي يتغنى بها أبناءُ العربية في كل قُطر، فتتجلى فيها نزعات الرأي العام أكثر ممَّا تتجلى فيها مبادئُ الشاعر السياسية، فهو كالنحلة تأخذ عسلها من كل زهرة، أليس شوقي القائل في النحل:

فهلْ رأيتَ النحلَ عن   أمانةٍ مُقصِّرَهْ
ما اقترضتْ من بقلةٍ   أو استعارت زَهَرَهْ
أدَّت إلى الناسِ بهِ   سُكَّرة بسكَّرهْ

وما دمنا في ذكر تسجيل الحوادثِ وتدوين الوقائع في الشعر، فخليقٌ بنا أن نُشيرَ إلى ما كان لشعراء مصر من الفضل العميم على نهضتها من خليل وحافظ إلى العقاد والمازني، ومن الرافعي ومحرم إلى الكاشف ونسيم، فقد تابعوا النهضة في سيرها فسجلوا وقائعها في قصائدَ ملؤها الروحُ السامية، بل سيَّروا النهضةَ في منهجها القويم بسديد أقوالهم، فرفعوا منارَ مصرَ وأعلوا شأنها بين الأمم.

وإذا رجعنا إلى أمير الشعراءِ أو شاعر الأُمراء، ذكرنا أنه يُروَى عن الإيطاليين قولهم: لو كانت حكومتنا جمهوريةً ما انتخبنا رئيسًا لها غيرَ ملكنا …

ونعتقد أنه لو كانت دولة الأدب إمارة ما اختار أدباؤنا أميرًا لها غير شاعر الأمراء، فهو جديرٌ بأن يتسنَّم عرشَ الإمارة عن رضًى واختيار من أركان دولة الشعر في هذا العصر؛ لأنه قد اجتمع له من صفات الشاعرية ما يؤهله لذلك، ولعلَّ الاحتفاءَ به في هذا الأسبوع يتمُّ بمبايعته رسميًّا بالإمارة.[٤] فقد صح فيه ما قاله عنه المرحوم إسماعيل صبري باشا منذ ثلث قرن:

مَرحَبًا بالقصيدِ يتلوهُ للشِعــ   ــر أميرٌ يُصغي لهُ أُمراءُ

---

[٤] وقد تمت هذه المبايعة في الحفلة التي أقيمت بعد أيام (٢٩ أبريل سنة ١٩٢٧) في دار الأوبرا الملكية لتكريم شوقي، فألقى فيها الشاعر الكبير «حافظ إبراهيم» قصيدة عامرة تقدم في أثناء إلقائها من المقصورة التي كان أحمد شوقي جالسًا فيها، وأخذ بيد زميله منشدًا بين التصفيق وهتاف الإعجاب بالشاعرين:

أميرَ القوافي قد أتيتُ مُبايعًا   وهذي جموعُ الشرقِ قد بايعَتْ معي

شوقي عاش شاعرًا، ومات شاعرًا[١]

ما أَشأم هذا الصيفَ على الأدبِ العربي!

غيَّبتْ أشهُرُه الثلاثة من سماءِ الشعر فرقَدَيه، وقوَّضت من صرحِ الأدبِ ركنيه.

ما هَّمت شمسُ الصيفِ بدخول «برجِ الأسد» في أوائل الفصل حتى أغارت على الأدبِ فطاحت بفارس ميدانِه، وما استوَتْ عندَ أواخرِ الفصل في «برج الميزان» حتى عبثت بفيصلِ الشعر وميزانِه.

ما كفكفتْ مصرُ دموعَها على «حافظ» حتى عادت تُطلِقُها اليومَ على «شوقي»، وما انتهت أنديةُ العرَب من توفية «حافظ» حقَّ التأبين والرثَاءِ، حتى حمل إليها البرق نعي إمام الشعر وأمير الشعراء.

منذ عشرة أسابيعَ أو ما يقربُ من هذه المدَّة، كان الأدبُ العربي يتيهُ بشاعريه فخرًا، ويطاولُ بهما أزهى عصور الأدب زهوًا، وها هو اليومَ، وقد فُجِع بهما الواحد تلوَ الآخر، يبكيهما معًا، فلا حول ولا قوة إلا بالله!

أما مصرُ فإن شعرَ شوقي وحافظ قد أجلسَها الصدرَ بين بلاد العرب، وثبَّت في يدِها مدةَ ثلث قرنِ صولجانَ الأدب، فكانت مصر تباهِي سائرَ الأمصار، وكان عصرُها بشاعريها عصرًا يُدِلُّ على العصور ويفاخر عهدَ بغدادَ والأندلسِ في إِبَّان الازدهار.

يقول اللاتين: «يصيرُ الخطيبُ خطيبًا، ولكنَّ الشاعرَ يُولدُ شاعرًا.»

---

[١] نُشرت بالأهرام يومَ وفاة شوقي.

وقد وُلد شوقي شاعرًا، وظلَّ شاعرًا من مهدِه إلى لحدِه.

كان شاعرًا يوم دخلت به جدَّته على الخديوي إسماعيل، وهو في الثالثة من عمره؛ وكان بصرُه لا ينزلُ عن السماءِ من ارتجاج أعصابه، فطلب الخديوي بَدرةً من الذهب، ثم نثرَها على البساطِ عند قدميه؛ فوقع شوقي — كما روى في مقدمة ديوانه — على الذهبِ يشتغل بجمعهِ واللعب به، فقال الخديوي لجدَّتِه: «اصنعي معه مثلَ هذا، فإنه لا يلبثُ أن يعتادَ النظرَ إلى الأرض.» قالت: «هذا دواءٌ لا يخرجُ إلَّا من صيدليتك يا مولاي.» قال: «جيئي به إليَّ متى شئتِ، إني آخرُ من ينثرُ الذهبَ في مصر.»

وكان شوقي شاعرًا، وهو طالبٌ في المدرسةِ، وقد أخذت إلاهةُ الشعرِ تُوحي إليهِ بالصورِ الجميلةِ والكلامِ الموزونِ الموسيقيِّ.

وكان شوقي شاعرًا، وهو يطلبُ الحقوقَ والآدابَ في فرنسا؛ وقد نظم في تلك الحِقبةِ من القصائدِ ما كان يبشِّرُ بما سيصيرُ إليه من الإمامة والإمارةِ في دولةِ القريض.

وكان شاعرًا، وهو يُمثِّل الحكومةَ المصريةَ في مؤتمر جنيف؛ فنظم قصيدةً غرَّاء تضمَّنت ما وقعَ في وادي النيل من كبارِ الحوادثِ منذ فجرِ التاريخ.

وظلَّ شاعرًا في جميع أدوار حياته، وهو في أوج الجاه وأبَّهة المناصب العالية والنفوذ لدى الحكام؛ وظلَّ شاعرًا، وهو في منفاه يطوفُ ربوعَ الأندلس ويتغنى بمفاخرِها الدارسة، ويبكِي ويستبكِي حنينًا إلى وطنه.

وظلَّ شاعرًا بعد عودتِه إلى ذلك الوطن، بل قد يكون هذا العهدُ، وهو عهدُهُ الأخير، أَخصبَ أدوارِ عمرِه إنتاجًا شعريًّا، فقد أقلع فيه عمَّا ألفه اضطرارًا، بحكم لقبه ومنصبه، من الموضوعات التي حَفَلَ بها ديوانُهُ الأوَّل، وتوفَّر على كل موضوعٍ وطنِيٍّ تاريخيٍّ عمراني، وكأنَّ قريحتَهُ كانت تزدادُ صفاءً ورواءً مع تقدُّمِه في السن، وكأنَّ شاعريتَهُ كانت تزيد تدفُّقًا وغزارةً كلما أخذ معينُ الحياةِ ينضُبُ في جسمه النحيل.

فلم يكتفِ بالقصائد يَقصِدُها، بل عمد إلى أشهرِ الحوادثِ من تاريخ مصرَ وتاريخ العرب ينظِمُها رواياتٍ تمثيليةً شعرية، وأَقبل على الفن الروائيِّ يُعالجهُ في سنٍّ يُودِّعُ فيها هذا الفنَّ غيرُهُ من الشعراء.

وهكذا كان في الحلقةِ الأخيرةِ من عمرهِ يُطالعنا في كلِّ حادثٍ من الحوادث بقصيدةٍ عصماء، ويزُفُّ إلينا في كلِّ عامٍ روايةً حسناء.

كان شاعرًا في «كرمة ابن هاني» يومَ كانت في «المطريَّة» مباءةَ أهل الفضلِ والأدبِ، وبعد أن انتقلت إلى «الجيزة» على ضفَّةِ النيل يجمعُ فيها أميرُها نفرًا من أصحابِ النظر والرأي في الكتابة، فيُطلعُهم على رواياتِه قبل أن يدفَعها إلى خشبة المسرح.

وظلَّ شوقي شاعرًا في مماته: ففي الليلةِ التي تقدَّمتْ صباحَ منيتِه، كانت إحدى المغنيات الشهيرات تُنشِدُ قصيدةً من قصائدِه، والجمهورُ يُصفِّقُ طربًا لروعة الشعر، وبعد وفاته ببضع ساعاتٍ كانت آخرُ قصيدةٍ نظمها تُلقى في حفلةِ الشباب القائم بمشروع القرش.

وقد يختلفُ الرأيُ في بعض شعره؛ غير أنَّ في دواوينه الكثيرَ مما يرفع قائله إلى المرتبة الأولى بين الشعراء، ويحفظُ ذكرَهُ خالدًا في تاريخ الأدب.

ولقد كان، رحمه الله، على ما نال من بسطة العيش وكبير الألقاب وواسع الجاه وبُعد الشهرة، وديعَ النفسِ مُنْخفِضَ الجانبِ دَمِثَ الأخلاق.

وكان عفَّ اللسان والقلم؛ لم ينطقْ هجرًا، ولم يكتب هجوًا، قال فيه المرحوم إسماعيل صبري باشا:

مرحبًا بالمقالِ سمحًا كريمًا   لم يَشُبْهُ هجوٌ ولا إيذاءُ
مرحبًا بالبيان سحرًا وبالشعـ   ـرِ تُحلِّيهِ حكمةٌ غراءُ

أما برُّهُ بأولادِه وعطفُهُ على أهل بيتِهِ فقد كانا مضربَ المثل؛ فكأنَّهُ خُلِقَ ليكونَ أبًا، كما وُلد شاعرًا، وقد نظمَ في بنيهِ قصائدَ سوف يخلُدُ معها ذكرُهم.

أَمَّا الآن، وقد مات حافظ، فمن ذا الذي يوفِّي شوقي حقَّهُ من الرثاء، وهو القائلُ منذ شهرٍ في رثاء حافظ:

قد كنتُ أُوثرُ أن تقولَ رثائي   يا منصفَ الموتى من الأحياءِ
لكن سبقتَ وكلُّ طولِ سلامةٍ   قَدَرٌ وكلُّ منيَّةٍ بقضاءِ

وهكذا لفَّت المنيةُ اليومَ علمًا من أرفعِ أعلامِ الشعر، وطوَت صفحةً من أمجد صفحات الأدب العربي.

وعندما أُودِع شوقي القبرَ عند غروبِ شمسِ اليوم، لم يَسَعْنا إلا أن نذكرَ قوله:

أقولُ لهم في ساعةِ الدفنِ خفِّفوا　　　عليَّ ولا تُلقوا الصخورَ على قبري
ألم يكفِ همٌّ في الحياةِ حملتُهُ　　　فأحمِلَ بعدَ الموتِ صخرًا على صخرِ

شوقي شاعريَّتُه ومميِّزَاتُها[1]

منذُ خمسِ سنواتٍ وبعضِ السنة اجتَمعنا في هذا المكانِ نفسِهِ لتكريمِ «شوقي»، واشتركتْ معنا وُفودُ الشرقِ العربيِّ في ضَفْرِ إكليلِ الغارِ على مَفرقِ أميرِ الشعراء، كما هي تشترك معنا اليومَ في نَثْرِ أزاهيرِ الذكرى على قبرِهِ، وكأنِّي بالفقيدِ الكريم ماثلًا كالأمس في مقصورته هذه، وكأني بفقيدِنا العظيم الآخر — حافظ إبراهيم — باسطًا يدَهُ إليه، وأَجواءُ هذه القاعةِ تردِّد، بين التصفيق والهتاف، صدى صوتِه الفخم:

أميرَ القوافِي قد أتيتُ مُبايعًا　　　وهذي وُفودُ الشرقِ قد بايَعَتْ معي

أما الفرقُ بين حفلتِنا هذه وحفلتِنا تلك، فالفرق بين نشوةِ الحياةِ وهمدةِ الموتِ، وبين بهجةِ الأعيادِ وخشوعِ المآتم، ولَئِن قصَّرَ خطيبُ اليومِ عن خطيبِ الأمس.

فمعذِرَةُ اليراعَةِ والقوافِي　　　جلالُ الرزءِ عن وَصفٍ يَدِقُّ[2]

[1] على أثر وفاة المرحوم أحمد شوقي بك تألفت لجنة من الأدباء برياسة وزير المعارف؛ لإقامة حفلة تأبين كبرى للفقيد الكريم، وقد طلبت اللجنة من المؤلف أن يخطب عن «شاعرية شوقي ومميزاتها»، فوضع هذا البحث ولخصه في خطبة ألقاها في الحفلة التي أقيمت في دار الأوبرا الملكية بعد ظهر يوم الأحد ٤ ديسمبر سنة ١٩٣٢.

[2] البيت لشوقي.

حديثي معكم أيها السادة، عن شاعرية شوقي، أو عن «شوقي الشاعر»، وهل كان شوقي في حياته إلَّا شاعرًا؟ وهل يبقَى منهُ بعدَ مماتِه غيرُ الشعر؟ بضعةُ أسابيعَ مرَّتْ على وفاتِه، وها قد نُسِيَ كبيرُ موظفي المعيَّة وحاملُ الألقابِ الضخمةِ من الدولةِ العلية؛ واضمحلَّ صاحبُ الثروةِ والجاهِ والنفوذ، وعَفَا أَثَرُ العضوِ في مجلسِ الشيوخ، فأصبحنا ولا نروِي عنه إلَّا ذلك الشعرَ الذي أرقص وأطرب، ولا نذكرُ منهُ إلَّا ذلك الشاعرَ الذي نظم فأعجب.

ولقد أدرك ذلك هو نفسُهُ إذ أنشدَ يومَ كان صاحبَ الصول والطول:

شاعرُ العزيزِ وما   بالقليل ذا اللقبُ

ويوم قال بعد منفاه:

ما ماتَ من حازَ الثرى آثارَهُ   واستولَتِ الدنيا على آدابِه

بل إنَّ قيمةَ الشاعرِ في نظرهِ لم تكنْ لتضارعها قيمةٌ.

والله ما تدرِي لعلَّ كفيفَهم   يومًا يكونُ أبا العلاءِ المبصرا
لو تشْتريهِ بنصفِ مُلكِك لم تجدْ   غبنًا، وجلَّ المشترِي والمشترَى

بل غالى حتى رأى الشعرَ مبعثَ كلَّ نهضةٍ قومية:

لم تَثُرْ أُمَّةٌ إلى الحقِّ إلَّا   بهُدَى الشعرِ أو خَطا شَيطانِهْ

بل زاد في الغلوِّ فقال:

أنتمُ الناسُ أيها الشعراءُ ...!

حَملَ قيثارةَ الشعر، وهو غلامٌ يافع، ولم تقعْ من يدهِ إلَّا صبيحةَ وقعَ صريعَ الردى، ولقد ظلَّ بين العهدَين، ما يَقرب من نصفِ القرن، يُخرج منها أعذبَ الأنغامِ وأشجاها، حيثما كان وكيفما كان: في مواقف الروع ومواقع الحروب:

أمولاي غنَّتكَ السيوفُ فأطربتْ فهلْ ليراعِي أنْ يُغنِّي فيُطربُ
وعندِي كما عندَ الظُّبا لك نَغمةٌ ومُختلَفُ الأَنغامِ للأُنسِ أجلبُ[٣]

أو في مواطِن الطمأنينة والابتهاج:

أَشهَى من العودِ المرنَّمِ مَنطقًا وأَلـذُّ مـن أوتـارهِ تـغـريـدا[٤]

لم يَشُدَّ إلى قيثارةِ الشعر وترًا جديدًا، ولكنَّه عرف أن يُنطق الأوتارَ القديمةَ بنغماتٍ جديدة مُستعذَبة، فأوتار العود معدودة، وهي هي، عدًّا ونوعًا، تحتَ أنامل العازف، ولكنَّ كلَّ عازفٍ يفتنُّ في النقرِ عليها ما شاءَ لهُ الافتنانُ، فيُسمِعُنا منها الجديدَ من الألحان، وألوانُ الشبح الشمسيِّ واحدةٌ، ولكنَّ كلَّ مصوِّرٍ يبتدع من مزيجها شتَّى الألوان.

وهكذا كانت أوتارُ القيثارةِ القديمة في يدِه تُخرِجُ أَلحانًا مستجدَّةً في كلِّ موضوعٍ فكان:

يكادُ إذا هو غنَّى الورى بقافيةٍ يُنطِقُ القافيَهْ
وتَحكمُ في النفسِ أوتارُهُ على العودِ ناطقةً حاكيَهْ[٥]

وما هي أوتارُهُ الناطقةُ الحاكية ...؟

أيها السَّادة، الدينُ والوطنُ عاطفتانِ غريزيَّتانِ في قلوبِ الناس، فهُما وَترانِ أساسيَّان في قيثارة الشاعر، ما داناهما بلمسٍ إلَّا أخرجا نغمًا بعيدَ القرار، وما نقر عليهما إلَّا استثار في صدور الجماهير الغيرة والنخوة والحماسة.

---

[٣] من قصيدته في وصف الوقائع العثمانية اليونانية.

[٤] من قصيدته في تهيئة السجناء الذين كانت المحاكم العسكرية قد اعتقلتهم.

[٥] من قصيدته في رثاء «فردي».

وتَر الدين

نقر «شوقي» على وتر الدين فتغنَّى بالإسلام غناءً جزلًا فخمًا، بلا تصنُّعٍ ولا تكلُّف، بل عن عقيدةٍ وإيمان، فكستْ عقيدته نظمَه حلَّةً قدسية، وعقد إيمانه حول هذا النوع من شعره هالةً نورانية.

اسمعوه يعتزُّ بالإسلام:

آياتُهُ كلَّما طال المدى جُددٌ — يَزينُهنَّ جلالُ العتقِ والقدمِ
يكادُ في لفظةٍ منه مُشرَّفَةٍ — يُوصيكَ بالحقِّ والتقوَى وبالرَّحِمِ
يا أفصحَ الناطقينَ الضادَ قاطبةً — حديثُك الشهدُ عندَ الذائقِ الفَهِمِ
حَلَيْتَ من عَطَلٍ جيدَ البيانِ بهِ — في كل منتثرٍ في حسن منتظمِ
يا «أحمدَ» الخيرِ لي جاهٌ بتسميتي — وكيفَ لا يَتسامَى بالرسولِ سميِّ

واصغوا إليه يَفخَرُ بدول الإسلام:

دَعْ عنك «روما» و«آثينا» ومَا حَوَتا — كلُّ اليواقيتِ في «بغداد» والتُّوَم[٦]
وخلِّ كسرى وإيوانًا يُدِلُّ بهِ — هوى على أثَر النيران والأيمِ[٧]
دارُ الشرائِع روما، كلما ذُكِرت — دارُ السلامِ لها ألقت يدَ السلمِ[٨]
ما ضارعتها بيانًا عند مُلتأَمٍ — ولا حكتها قضاءً عند مُختَصَمِ

وبملوك الإسلام:

ولا احتوت[٩] في طرازٍ من قياصرها — على رشيدٍ ومأمونٍ ومُعتصِمِ
من الذين إذا سَارت كتائبُهم — تصرَّفوا بحدودِ الأرضِ والتُّخُمِ

---

[٦] التوم جمع تومة، وهي الحبة من الفضة تعمل على شكل الدرة.

[٧] الأيم: الدخان.

[٨] دار السلام: بغداد. السلم: التسليم.

[٩] الضمير يعود إلى روما.

ويـجـلـسـون إلـى عـلـمٍ ومـعـرفـةٍ فـلا يُـدَانَـونَ فـي عـقـلٍ ولا فَـهَـمِ

وإذا انتصرت دولةٌ من دول الإسلام ترنَّح طربًا ورنَّح الشرقَ معه:

وأرَّجَ الفتحُ أرجاءَ الحجاز وكم قضى الليالِيَ لم يَنعَمْ ولم يَطِبِ
وازَّينت أُمهاتُ الشرقِ واستبَقَتْ مَهارِجُ الفتح في الموشيِةِ القشُبِ
هزَّت دمشقُ بني أيُّوبَ فانتبهوا يُهنِّئونَ بني حَمدانَ في حَلَبِ
ومسلمو الهندِ والهندوسُ في جَذَلٍ ومسلمو مصرَ والأقباطُ في طربِ
ممالكٌ ضمَّها الإسلامُ في رحِمٍ وشيجةٍ[١٠] وحواها الشرقُ في نسب

يُقدِّسُ الإسلام ويجلُّ تقاليدَه العريقة، وينبري للذود عن الخلافة بجميع جوارحه:

مَنْ قائلٌ للمسلمين مقالةً لم يُوحِها غيرُ النصيحةِ واحِ
عهدُ الخلافةِ فيَّ أولُ ذائدٍ عن حوضها بيراعِهِ نضَّاح[١١]
حُبٌّ لذاتِ اللهِ كان ولم يَزَلْ وهوًى لذاتِ الحق والإِصلاح

وهو لا يُنزِّه المسلمين عن الأخطاءِ والهفوات، ولكنَّ الذنبَ إنما هو ذنبهم لا ذنبُ الإسلام.

من عادةِ الإِسلام يرفعُ عاملًا ويُسوِّدُ المقدامَ والفعَّالا
ظلَمتْهُ أَلْسِنةٌ تُؤَاخِذُهُ بِكُمْ وظلمتموهُ مُفرِّطين كسَالى
هذا هلالُكمُ تكفَّل بالهدى هل تعلمون مع الهلال ضلالا؟

ومن هذا الشيءُ الكثيرُ ممَّا لا مجالَ لإِيراده بجملتِهِ، وتجدونَه في شتَّى قصائدِه، ولا سيما في الهمزية النبوية، وعرفات، والخلافة وذكر المولد، والأزهر، والهلال، ونهج البردة، ورثاء مقدونيا إلخ.

---

[١٠] وشيجة: متصلة القرابة.

[١١] الذائد: الحامي. النضاح: الدافع.

ومثلُ هذه النبضات لا تَصدُرُ إلَّا عن قلبٍ عامرٍ بالإيمانِ:

شعرٌ من النَّسقِ الأعلى يؤيِّدُهُ   من جانبِ الله إلهامٌ وإيحاءُ

روى كاتبهُ الأديب في كتاب أصدرَهُ منذ أسبوع[١٢] أنَّه كان يقرأ لهُ في «المختصر من مكاشفة القلوب» للغزالي قال: «وبقيت حتى منتصَفِ الساعة الواحدة، ولم يبقَ إلَّا موضوعٌ واحد، وهو وفاة رسولِ الله ﷺ، ولكني لفتُّهُ إلى أن هذا الوقتَ موعدُ رياضتِهِ، فقال: حتى تُتِمَّ، فقرأتُ له موضوع الوفاة، فأخذ يبكي.» ا.هـ.



شوقي وأولاده (في سنة ١٩٠٧).

[١٢] «١٢ عامًا في صحبة أمير الشعراء» بقلم أحمد عبد الوهاب أبو العز.

وكان تمسكه هذا بالدين بعد أن خَبَر الدنيا وذاق حلوَها ومرَّها:

جنيتُ بروضِها وردًا وشوكًا وذُقتُ بكأسها شُهْدًا وصابا
فلم أرَ حُكم اللهِ حُكمًا ولم أرَ دونَ باب اللهِ بابا

على أن هذا الشاعرَ الراسخَ العقيدة، الصادق الإيمان، لم يُسئْ إلى أحدٍ في عقيدته؛ لأن مبدأه كان: «المسلم مَن سلم الناسُ من يدهِ ولسانه.» وهكذا تَرَون أُدباء المسيحيين والإسرائيليين يتغنون بشعره الإسلامي، ويطربون له طرب المسلمين أنفسهم، وقد يتناول أدقَّ الموضوعات من هذا القبيل، ولكنَّه يتناولها بلمس الحرير فلا يؤلم ولا يجرح، كوصفه كنيسة آيا صوفيا التي صارت مسجدًا:

كنيسةٌ صارت إلى مسجد هديةُ السيِّدِ للسيِّدِ

ووصفهِ مدينةَ القسطنطينية وقد خرجت من يدِ الروم إلى يد بني عثمان:

أدارَ محمدٍ وتُراثَ عيسى لقد رضياكِ بينهما مُشاعا
فهل نَبَذَ التعصُّبَ فيكِ قومٌ يَمُدُّ الجهلُ بينهما نِزاعا

وهكذا يحترم الأديانَ ويُجلُّ كُتبها:

أرسلتَ بالتوراةِ موسَى مرشدًا وابنَ البتولِ فعلَّم الإنجيلا
وفَجَرتَ يَنبوعَ البيانِ محمدًا فسَقى الحديثَ وناوَلَ التنزيلا

وإذا وقع العيدانِ — عيد المسلمين وعيد المسيحيين — في يومٍ واحدٍ حيَّاهما معًا أجملَ تحيَّة:

العامُ أقبل قم نُحيِّ هلالا كالتاجِ في هامِ الوجودِ جلالا
عيدُ المسيحِ وعيدُ أحمدَ أقبلا يتباريان وضاءَةً وجمالا
ميلادُ إحسَانٍ وهِجرةُ سؤدُدٍ قد غَيَّرا وجهَ البسيطةِ حالا

وإذا رأى اعتداءً من دولةٍ من دول الصليب، فإنه لا يُثير الأحقادَ الدينية القديمة، بل يُبرِّئُ الدينَ، ويُنجِي باللائمةِ على الذين لا يتَّبعون وصاياه:

تبرَّأ عيسَى منهمُ وصِحابُهُ   أَأَتباعُ عيسَى ذي الحنانِ جفاةُ؟

أو يعاتِبُ ألطفَ عتاب ويمهِّد له أجمل تمهيد:

عيسَى سبيلُكَ رَحمةٌ ومحبَّةٌ   في العالمين وعِصمةٌ وسَلامُ
ما كُنتَ سفَّاكَ الدماءِ ولَا امرءًا   هانَ الضعافُ عليه والأيتامُ
يا حاملَ الآلامِ عن هذا الورى   كَثُرَت عليه باسمك الآلامُ
أنتَ الذي جعلَ العبادَ جميعَهم   رَحِمًا وباسِمِكَ تُقطَعُ الأرحامُ
البغيُ في دينِ الجميعِ دَنيَّةٌ   والسلمُ عهدٌ والقتالُ ذِمامُ

أمَّا الحروبُ الدينيَّة التي مزَّقت الإنسانية في حقبات مُختلفة فمرجِعها إلى الضلال، والدين ينفضُ يده منها.

لولا ضلالٌ سَابقٌ لم يَقُمْ   من أجلكَ الخَلقُ ولم يَقعُدِ
فكلُّ شرٍّ بينهم أو أذًى   أنت براءٌ منهُ طُهرُ اليدِ

ومن كانت هذه آراؤه في الأديان ومُوحيها فلا عجَبَ أن يكونَ في طليعة الداعين إلى اتحاد العنصرين المكوِّنين للأمة المصرية:

أعهدتنا والقبط إلَّا أُمَّةً   للأرضِ واحدةً تروم مراما
نُعلِي تعاليمَ المسيح لأجلِهم   ويوقِّرون لأجلنا الإسلاما
الدين للدَّيان جَلَّ جلالُه   لو شاءَ ربك وحَّد الأقواما
هذي قبورُكم وتلك قبورُنا   متجاورينَ جماجمًا وعِظاما
فبحُرمةِ الموتى وواجبِ حقِّهم   عيشوا كما يقضِي الجوارُ كراما

وهو يُدلِّل على وجوبِ هذا الاتحاد باسم الوطن:

ألم تكُ مصرُ مهدَنا ثم لحدَنا وبينهما كانت لكلٍّ مغانيا
ألم نكُ من قبلِ المسيحِ بن مريم وموسَى وطَه نعبُدُ النيلَ جاريا
فهلَّا تساقينا على حُبِّهِ الهوَى وهلَّا فديناه ضفافًا وواديا

بل باسم الدين نفسهِ:

إنما نحنُ مسلمين وقبطًا أمَّةٌ وُحِّدت على الأجيال
وإلى اللهِ من مشى بصليبٍ في يديهِ ومن مشى بهلالِ

ومِن نِعم الله على مصر أن هذا الاتحادَ قد توثق فيها على وجهٍ لم يتوثَّق على مثاله في قُطر آخر، فثارت البلاد تطالب باستقلالها تحت رايةٍ رُسِم عليها الهلالُ معتنقًا الصليب، وفي ذلك يقول فقيدُنا:

مزَّقتُم الوهمَ وألفتمُ أهِلَّةَ اللهِ على صُلْبِهِ
حتى بَنيتم هَرَمًا رابعًا من فئةِ الحقِّ ومن حزبِهِ

وهو القائل كذلك في الصليب والهلال:

جبريلُ أنت هُدَى السما ءِ وأنتَ برهانُ العنايَهْ
ابسُطْ جناحَيكَ اللذَيـ ـنِ هُما الطهارةُ والهدايهْ
وزدِ الهلالَ من الكرا مةِ والصليبَ مِنَ الرعايهْ
فَهُما لربِّكَ رايةٌ والحربُ للشيطانِ رايهْ

وله في كلِّ ذلك حكمةٌ بالغة وهي:

الدينُ للهِ من شاءَ الإلهُ هَدَى لكلِّ نفسٍ هوًى في الدين يعنيها
ما كان مختلفُ الأديانِ داعيةً إلى اختلافِ البرايا أو تَعادِيها

الكتْبُ والرسْلُ والأديانُ قاطبةً   خزائنُ الحكمةِ الكبرى لوَاعيها
محبَّةُ اللهِ أصلٌ في مَراشدِها   وخَشيةُ اللهِ أُسٌّ في مبَانيها
وكلُّ خيرٍ يُلقَّى في أوامرِها   وكلُّ شرٍّ يُوقَّى في نَواهيها
تَسَامُحُ النفسِ معنًى من مروءتِها   بل المروءةُ في أسمى مَعانيها

هذا مثالٌ من الأنغام الفخمة التي استخرجها «شوقي» من وتر الدين، وهي نغماتٌ ذات أجنحةٍ مصفَّقة تحملها على تموُّجات العواطف إلى الملايين من الناس، فيتراجع صداها في الصدور حيث تستقرُّ بردًا وسَلامًا، وهل تعرفون شعراءَ كثيرين وُفِّقوا لما وفِّق له شوقي؛ إيمانًا صادقًا، ورأيًا صائبًا، وحكمةً رائعة، وذوقًا سليمًا، مع جزالةٍ في اللفظ وفخامة في الأسلوب؟

وتَر الوطن

أمَّا وترُ الوطن فلم يكن بأقلَّ براعة وحذقًا في النقرِ عليه، فوطنياتُ شوقي خليقةٌ بأن تُجمع وتدرَّس في المدارس لتنشئة الطلبة على حب الأوطان، فهو يقدس الوطن تقديسًا، ويتكلم عن العاطفة الوطنيَّة كعقيدة دينية، أليس حبُّ الوطن من الإيمان، وهو الرجلُ المؤمن كما رأينا؟

أيا وطني لَقِيتُك بعد يأسٍ   كأنِّي قد لَقِيتُ بك الشبابا
ولو أنِّي دُعيتُ لكنتَ دِيني   عليهِ أُقابلُ الحتمَ المُجابا[١٣]
أُديرُ إليك قبلَ البيتِ وجهي   إذا فُهتُ الشَّهادةَ والمَتابا

أنزَلَ الوطنَ منزلة الدين في هذه الأبياتِ، وفي غيرها:

وسَلا مصرَ هل سلَا القلبُ عنها   أو أسَا جرحَهُ الزمانُ المؤَسِّي
كلَّما مرَّتِ الليالي عليهِ   رقَّ، والعهدُ في الليالي تُقَسِّي

[١٣] الحتم المجاب: هو الموت.

وطني لو شُغِلتُ بالخُلد عنهُ نازَعتْنِي إليهِ في الخُلدِ نفسي

وهل يُستغرَب ممَّن ينبضُ قلبه بهذه العاطفة الوطنية أن يجعل مصر كعبة أشعاره؟

وإنِّي لَغِرِّيدُ هذي البطاحِ تَغذَّى جَناها وسَلسَالَها
ترَى مصرَ كعبة أشعارِهِ وكلُّ مُعلَّقةٍ قالها

ويكادُ يتغزلُ بوطنه في كل موضوعٍ يعالجه، حتى في خمريَّاته، فبينما ينشد في العيد طربًا؛ رمضانُ ولَّى، هاتها يا ساقي، إذ به يتجهَّم لذكرى وطنه:

وطني أَسِفتُ عليكَ في عيدِ المَلا وبكيتُ مِنْ وجدٍ ومن إشفاقِ
لا عيدَ لي حتى أراكَ بأُمَّةٍ شمَّاءَ راويةٍ من الأخلاقِ

نعم، إنَّ حبَّ الوطن سجيَّةُ كلِّ حرٍّ:

وللأوطانِ في دم كلِّ حُرٍّ يَدٌ سلفت ودَينٌ مستحق

يقول ذلك ويُعيدُه:

ولقد صدقتم، هذهِ الأرضُ الهوى والحرُّ يَصدُقُ في هوى أوطانِهِ

ولكنَّ مصرَ أحرى من سواها من الأوطان بهوى أبنائها:

إِن الذي قسمَ البلادَ حباكمُ بلدًا كأوطانِ النجومِ مجيدا
قد كان والدنيا لحودٌ كلُّها للعبقريَّةِ والفنونِ مُهودا

واسمعوه بعد ذلك يُعدِّد محاسن هذا الوطن في مختلف قصائده مهما تنوعت موضوعاتها، ويُبدِع في وصف آثار مصر ما شاء الإبداع، سواءٌ تكلَّم عن الهياكل وما فيها من مدهشات الفن:

شابَ من حولها الزمان وشابت   وشبابُ الفنونِ ما زال غَضَّا
ومحاريب كالبروج بَنَتْها   عَزَمَاتٌ من عزمة الجنِّ أَمضى …

أم تكلَّم عن أهرامِ مصر:

لك كالمعابد روعةٌ قُدسيةٌ   وعليكِ روحانيَّةُ العبَّادِ
أسِّستِ من أحلامِهم بقواعد   ورُفعتِ من أخلاقِهم بِعمادِ
قُمْ قَبِّلِ الأَحجارَ والأَيدي التي   أخذتْ لها عَهدًا من الآبادِ
وخُذِ النبوغَ عن الكنانةِ إِنها   مهدُ الشموسِ ومسقط الآرادِ[١٤]

أو عن أبي الهول:

كأنَّ الرمالَ على جانبيـ   ـك وبين يديكَ ذنوبُ البَشرْ
كأنَّك فيها لِواءُ القضا   ءِ على الأرضِ أو ديدبانُ القَدرْ

أو عن النيل:

من أيِّ عهدٍ في القرى تتدفَّقُ   وبأي كفٍّ في المدائن تُغدِقُ
ومن السماءِ نزلتَ أَم فُجِّرتَ من   عُليا الجِنان جداولًا تترقرقُ
وبأي نَولٍ أنت ناسجُ بردةٍ   للضَّفتين جديدُها لا يخلُق …
لي فيك مَدْحٌ ليس فيه تكلُّفٌ   أملاهُ حُبٌّ ليس فيه تملُّقُ

[١٤] الآراد: جمع رأد. والمراد رأد الضحى وهو وقت ارتفاع الشمس.

ولكن ما له وللتفصيل، فكلٌّ ما قام في مصرَ عجيبٌ بخلوده:

أمَّــةٌ لــلــخُــلــدِ مــا تــبــنِــي إذا ما بنى الناسُ جميعًا للعفاءِ
تَعصِمُ الأَجسامَ من عادي البِلى وتقي الآثارَ من عادِي الفناءِ

ومجال الفخر بتاريخ مصر، وما تعاقبَ فيها من جُسام الحوادث، لا يقلُّ اتساعًا عن مجال الفخر بآثارها الخالدة:

واخفِضْ جناحَك في الأرضِ التي حملتْ موسَى رضيعًا وعيسى الطهرِ منفطما
وأخــرجــتْ حــكــمــةَ الأجــيــال خــالــدةً وبيَّنتْ لـلـعـبـادِ الـسـيـفَ والـقـلـمـا ...
هــذا فــضــاءٌ تُــلِــمُّ الــريــحُ خــاشــعــةً بِهِ، ويمشِـي عليهِ الدهرُ محـتـشـمـا

وعلماؤها الأعلامُ هم الذين نشروا نورَ التمدين في العالم:

فكانوا الشُّهبَ حينَ الأرضُ ليلٌ وحـيـن الـنـاسُ جد مـضـلَّـلـيـنـا
مشتْ بمنارهم في الأرضِ روما ومـن أنـوارِهـم قـبـسَـتْ أثـيـنـا

وأين تاجُ الملوكِ وعرشهم من تاج ملك مصر وعرشه:

بــاهِ الــمــلــوك بــهــذا الــتــاجِ إنَّ لــهُ في جوهرِ الشمسِ لا في الماس مُنْتَسَبا
وتِـهْ عـلـيـهـم بـعـرشٍ غـيـر ذي لِـدَةٍ من عهد «خوفو» على الماءِ استوى عَجَبا
لــو اســتــطــعــنــا لَــزِدْنــا فــيــهِ قــائــمــةً ولاتــخــذنــا لــه أمَّ الــسُّــهــا عــتَــبَــا

وهو على هذا النحو يبسطُ تاريخَ مصر استفزازًا للهمم:

وأنـا الـمـحـتـفِـي بـتـاريـخ مـصـر من يَصُنْ مجدَ قومِه صانَ عِرْضا
لـم تَـمُـتْ أُمَّـةٌ ولا بـاد شـعـبٌ أقرضوا الذكرَ والأحاديثَ قَرضا

أحبَّ هذا الوطن في ماضيه حبًّا جمًّا، وقد أحبَّه في حاضره حبًّا أشدَّ، لذلك ما فتئ يدعو إلى الجدِّ والنشاط في مختلف ميادين العمل لاستعادة ذلك المجد الباهر:

فاض الزمانُ من النبوغ فهلْ فتًى   غَمَرَ الزمانَ بعلمِهِ وبيانِهِ
أين التجارةُ وهي مِضمار الغِنَى؟   أينَ الصناعةُ وهي وجهُ عَنانِهِ؟[١٥]
أين الجوادُ على العلوم بمالِه؟   أين المشارِكُ مصرَ في فدَّانِهِ؟
أين الزراعةُ في جنانٍ تحتكم   كخمائِل الفردوس أو كجنانِهِ؟

مرَّت على مصر حِقبة من الزمن كانت مقاليدُ أمورها في غير يد أبنائها فصارت إلى غير ما يريده أبناؤها البررة المخلصون:

أرى وطنًا تحيَّر ناشئوهُ   فما يَجِدون من عملٍ قِواما[١٦]
فلا أُسُسُ التجارةِ فيه قرَّتْ   ولا رُكنُ الصناعةِ فيه قاما
مدارسُ لم تُهيِّئْهم لكسبٍ   ولم تبنِ الحياةَ ولا النظاما

ولذلك صارت حالة أبناءِ الذين علَّموا الدنيا الفنَّ والصناعةَ إلى ما يؤلم النفسَ:

تَجِدُ الذين بنى المسلَّةَ جَدُّهم   لا يُحسِنونَ لإبرةٍ تشكيلا

والآن فلننظر كيف يُريد هذا الوطن.
يريده قبل كلِّ شيءٍ متحدًا:

إلامَ الخلفُ بينكمُ إلاما   وهذي الضجَّةُ الكبرى علاما؟
وفيمَ يكيدُ بعضُكمُ لبعضٍ   وتُبدون العداوةَ والخصاما؟
وأين الفوزُ؟ لا مصرُ استقرَّت   على حالٍ ولا السودانُ داما

[١٥] العنان: بفتح العين السحاب.
[١٦] القوام: ما يقيم الإنسان.

فلا قوَّة إلَّا بالاتحاد:

صوتُ الشعوبِ من الزئيرِ مُجمَّعًا   فـإذا تـفـرَّق كـان بـعـضَ نـبـاحِ

يُريدُ هذا الوطنَ حرًّا، طليقًا من القيودِ التي قعدت به عن السيرِ إلى الأمام:

يا قومِ، هذا زَمَنٌ قد رمى   بالقيدِ واستكبرَ عن سَحْبِه
لو أَنَّ قيدًا جاءَهُ من علٍ   خَشِيتُ أن يأبَى على ربِّهِ

يأبى هذا القيدَ ولو كان من الجُمان:

شُهَدُ[١٧] الحياةِ، مشوبةً   بـالـرقِّ، مـثـلُ الـحـنـظلِ
والقيدُ لـو كـان الـجُـما   نَ مُـنـظَّـمًـا لـم يُـحـمَـلِ

وإذا هنَّأ المعتقَلين السياسِيين بفكِّ اعتقالهم عاد إلى حريَّة الوطن فقال:

وَجَدَ السجينُ يدًا تُحطِّمُ قيدَهُ   من ذا يُحطِّمُ للبلادِ قيودا؟

وكيف الوصولُ إلى تحقيق هذه الأُمنية؟

هناك فكرتان أساسيتان تعودان في شعره، بل قاعدتان أُولَيان يريد أن يبني عليهما إنهاضَ الوطن وإسعادَه: الأولى العلُم والقوَّة، والثانية الدستور والشُّورى، وله في كلا المعنيين ما لا نعرف مثله لشاعرٍ قبله:

إنْ سرَّك الملكُ تَبنيهِ على أُسُسٍ   فاستنهِض البانِيَين: العلم والأدبا
وارفعْ لها من حبالِ الحقِّ قاعدةً   ومُدَّ من سببِ الشُّورى له طُنُبَا

وترى هاتين الفكرتين مفصَّلتين في شتى منظوماتِه.

[١٧] شُهَدُ: جمع شُهدة وهي العسل.

أما العلمُ والقوَّة فحيث يقول:

المُلْكُ والدُّولاتُ ما يبني القنا والعلمُ، لا ما ترفعُ الأحلامُ

فالسَيف والقلم سياجُ الوطن ومظهرُ شَرَفه وعزِّه:

ومن شَرَفِ الأوطانِ أن لا يفوتَها حُسامٌ مُعِزٌّ، أو يراعٌ مُهذِّبُ

فالحسامُ المُعِزُّ هو الذي يصون الحقوق:

فَقُلْ لبانٍ بقولٍ رُكنَ مملكةٍ على الكتائبِ يُبنَى الملكُ لا الكتُبِ
لا تلتمسْ غَلبًا للحقِّ في أُممٍ الحقُّ عندهمُ معنًى من الغَلَب
لا خيرَ في منبرٍ حتى يكونَ لهُ عُودٌ من السُّمْرِ أو عُودٌ من القُضُبِ
وما السلاحُ لقومٍ كلُّ عُدَّتِهم حتى يكونوا منَ الأخلاقِ في أُهُب

واليراعُ المهذِّبُ هو دواءُ النفوس:

تَرْكُ النفوسِ بلا علمٍ ولا أدَبٍ تَرْكُ المريضِ بلا طبٍّ ولا آسِ

والجهلُ مضيعةُ الحقوق:

بالعلمِ تمتلكُ الدنيا ونَضرتَها ولا نصيبَ من الدنيا لجهَّالِ

لذلك تراه يُقدِّس مُهمَّة المعلِّم، وإذا كان بسمرك قد قال بعد حرب السبعين: «غلبنا جارتنا بمعلِّم المدرسة.» فإن شاعرَنا يقول:

أعلمتَ أشرفَ أو أجلَّ من الذي يَبنِي ويُنشِئُ أنفسًا وعقولا؟

ثمَّ يجمعُ بين القوة والعلم فيقول:

وما الحكم أن تنقضِي دولةٌ   وتُقبِلَ أُخرى وأعوانُها
ولكن على الجيشِ تقوَى البلا   دُ وبالعلم تشتدُّ أركانُها
فأين النبوغُ وأين العلو   مُ وأين الفنونُ وإتقانُها

أمَّا الشُّورى وأمَّا الدستور فيكاد لا يقصدُ قصيدةً إلَّا جعل لهما منها النصيبَ الوافر؛ لأنَّ:

شرَّ الحكومةِ أن يُسَاس بواحدٍ   في الملكِ أَقوامٌ عِدادُ رمالِه

ولذلك يقولُ مخاطبًا توتنخ أمون:

زمانُ الفردِ يا فرعونُ ولَّى   ودَالتْ دولةُ المتجبِّرينا
وأصبَحَتِ الرُّعاةُ بكلِّ أرضٍ   على حُكمِ الرعيَّةِ نازلينا
فؤادُ أجلُّ بالدستورِ دُنيا   وأشرفُ منكَ بالإسلامِ دِينا

فالدستور هُدى الحكام ومفخرةُ الملوك:

وجواهرُ التيجانِ ما لم تُتخَذْ   من معدنِ الدستورِ غيرُ صِحاحِ
وخذوا بناءَ الملكِ عن دستوركم   إنَّ الشراعَ مثقِّفُ الملَّاحِ

ولذلك يُهيب بطلاب العلم أن:

كونوا سياجَ العرشِ، والتمسوا لهُ   نصرًا من الملك العزيزِ مؤزَّرا
وتفيئوا الدستورَ تحتَ ظلالِه   كنَفًا أهشَّ من الرياضِ وأنضرا

بل إنَّ الشُّورى من الدين: قال يخاطِبُ سلطانَ تركيا منذ ربع قرن:

الرأيُ رأيُ أمير المؤمنين إذا حارت رجالٌ وضلَّت في مرائيها
وإنما هي شُورى اللهِ جاءَ بها كتابُهُ الحقُّ يُعليها ويُغليها

هكذا أحبَّ شوقي مصرَ في ماضيها المجيد، وفي حاضرها المتوثِّب، حبًّا يقرب من العبادة، وهو يحبُّها كذلك في مستقبلها، أي في شبَّانها، فهم معقدُ آمالها ومعقلُ رجائِها:

يا شباب الديارِ، مصرٌ إليكم ولواءُ العرينِ للأشبالِ
كلما روِّعَتْ بشُبهةِ يأسٍ جعلتكم معاقلَ الآمالِ

وهم أبهى حلاها:

وطَنٌ يَرفُّ هوًى إلى شُبانهِ كالروضِ رقَّتُهُ على رَيْحانهِ
هم نظمُ حِليتهِ وجوهرُ عِقدِهِ والعِقدُ قيمتُهُ يتيمُ جُمانهِ
قلْ للشبابِ زمانكم متحرِّكٌ هل تأخذون القسطَ من دورانهِ؟

فلا بدَّ من مجاراة الزمان في دورانه، ولا بدَّ من الإقدام والعمل:

تَحرَّكْ، أبا الهولِ، هذا الزمانُ تحرَّكَ ما فيه حتى الحجرْ

فشعارُ هذا العصر الإقدام:

قلْ للشبابِ بمصرٍ: عصرُكمْ بَطل بكلِّ غايةِ إقدامٍ لهُ ولعُ
أُسُّ الممالكِ فيه همةٌ وحجى لا الترُّهاتُ لها أُسٌّ ولا الخِدَعُ

يُريد شبَّانَ مصر طموحين إلى المعالي لا خانعين قانعين:

فَغَالي في بنيكِ الصيد غالي فقد حُبَّ الغلوُّ إلى بنينا
شبابٌ قُنَّعٌ لا خيرَ فيهم وبُورِكَ في الشبابِ الطامحينا

ولكنه يريدهم مستمسكين بالإنصاف:

ربُّوا على الإنصاف فتيانَ الحمى تجدوهمُ كهفَ الحقوق كهولا

متخلقين بالكرم والصفح:

كرمٌ وصفحٌ في الشباب وطالما كَرُمَ الشبابُ شمائلًا وميولا
قوموا اجمعوا شُعبَ الأبوَّةِ وارفعوا صوتَ الشبابِ محبَّبًا مقبولا

على أن يكونوا مع ذلك معتصمين بحبل الله، فصوتهم عند الله مستجاب:

شبابَ النيلِ إنَّ لكم لصوتًا ملبًّى حين يُرْفَعُ مستجابا
فهزُّوا العرشَ بالدعواتِ حتى يُخفِّفَ عن كنانتِهِ العذابا

وهل في استنهاض الشباب أبلغُ وأحرُّ من هذه النغمة المنبعثة من سُويداء قلبهِ:

يا شبابَ الغدِ، وابنايَ الفِدَى لكمُ، أكرِمْ وأعزِزْ بالفِداءِ
هل يمدُّ اللهُ لي العيشَ، عسَى أن أراكم في الفريقِ السُعداءِ
وأرى تاجَكُمُ فوقَ السُّهى وأرى عرشكمُ فوقَ ذُكاءِ
مَن رآكم قال مصرُ استرجعت عزَّها في عهدِ «خوفو» و«مناءِ»
إنما مصرُ إليكم وبكم وحقوقُ البرِّ أَولى بالقضاءِ
عصركم حرٌّ ومُستقبلُكم في يمينِ اللهِ خيرِ الأُمَنَاءِ
لا تقولوا «حطَّنا الدهرُ» فما هو إلَّا من خيالِ الشعراءِ
هل علمتم أُمَّةً في جهلِها ظهرَتْ في المجدِ حسَناءَ الرداءِ

فـخـذُوا الـعـلـمَ عـلـى أعـلامـهِ   واطلبوا الحكمةَ عند الحكماءِ
واقرءوا تاريخكم واحتفظوا   بفصيح جاءَكم من فُصحاءِ
واطلبوا المجدَ على الأرضِ، فإن   هي ضاقتْ فاطلبوه في السماءِ

هذه الأبيات قالها في سنة ١٩١٤ وهي تُعبِّرُ عن الأملِ المنشود، فاسمعوه في سنة ١٩٢٤ يتغنَّى بالأمل المحقَّق:

يا مصرُ أشبالُ العرينِ ترعرعتْ   ومشَتْ إليكِ من السجونِ أُسودا
قالوا: أتنظِمُ للشبابِ تحيَّةً   تبقَى على جيدِ الزمانِ قصيدا
قلتُ: الشبابُ أَتمُّ عِقدِ مآثرٍ   من أن أزيدَهمُ الثناءَ عُقودا
قَبلتْ جهودَهمُ البلادُ وقبَّلتْ   تاجًا على هاماتِهم مَعقودا

ترون من هذا كيف أحبَّ مصر في مستقبلها، أي في شبابها، وكأني به يعتذر إلى هذا الجيل الآتي عن الجيل الحاضر:

إِن أسأْنا لكمُ أو لم نُسِئْ   نحنُ هَلكَى فلكم طول البقاءِ

كما يعتذر إلى الجيل الحاضر عن الجيل الماضي:

هذا جناهُ عليكمُ آباؤكم   صبرًا وصفحًا فالجُناةُ كِرامُ

فإن ما فينا من نقصٍ يُمهِّد العذرَ للمتقدمين:

فإنَّا لم نُوَقَّ النقصَ حتى   نطالبَ بالكمالِ الأولينا

فهل جاد وتَرُ الوطن في قيثارة الشعر بأعلى من هذه الأنغامِ وأغلى منها؟
وهل نبض القلبُ بأحرَّ من هذه الدعوات لإذكاءِ نار الوطنية واستثارة الروح القومية؟

وإذا كانت مصر، وآثار مصر، ومدنية مصر، وعرش مصر، وشبان مصر، تكادُ تكون القرارَ في جميع ألحانه، فإنه ما نسي ذلك الشرق العاثر:

وما الشرقُ إلَّا أسرةٌ أو قبيلةٌ تلمُّ بنيها عند كلِّ مصابِ

وما غمط حقَّ قُطرٍ من الأقطار التي تربطها بمصر رابطة من روابط الجوار:

رُبَّ جارٍ تلفَّتتْ مصرُ تُولِيــ ـهِ سؤالَ الكريمِ عن جيرانِهْ

أو روابط اللغة:

ونحن في الشرقِ والفصحى بنو رَحِمٍ ونحن في الجرح والآلام إخوانُ

أو روابط الدين:

شعوبك في شرقِ البلادِ وغربِها كأصحابِ كهفٍ في عميقِ سُباتِ
وهذا زمانٌ أرضهُ وسماؤه مجالٌ لمقدامٍ كبيرِ حياةِ
فقلْ: ربِّ، وفِّق للعظائم أمتِي وزيِّنْ لها الأفعالَ والعزَماتِ

حتى غمر شعرُه هذا الشرقَ فكان شريكهُ في أفراحه ومواسيَهُ في أتراحِه:

كان شعري الغناءَ في فرح الشر قِ وكانَ العزاءَ في أحزانِهْ

فيتألَّم لحالة هذا الشرق:

وانظر الشرق كيف أَصبح يهوِي وانظرِ الغربَ كيفَ أصبح يصعدْ
وتأمَّلْ ممالكًا وبلادًا لمسَ الدهرُ عقدَها فتبدَّدْ
كنتَ تحميه والسيوفُ عوارٍ من لهُ اليومَ بالحسامِ المجرَّدْ

ويتوجع لتخاذُل أبنائه واستكانتهم:

متفكِّكون فما تضمُّ نفوسَهم ثقةٌ ولا جَمَع القلوبَ صفاءُ
رقدوا وغرَّهمُ نعيمٌ باطلٌ ونعيمُ قوم في القيود بلاءُ

لا سيما وهو يقابل بين الماضي والحاضر:

من مشرقِ الأرضِ الشموس تظاهرَتْ ما بالُ مغربِها عليه أُدِيلا

ولقد نظم في بغداد ودمشق ولبنان، مهنئًا أو معزيًّا أو مواسيًا، ما قد يكون قصَّر عنه شعراءُ العراقِ أو الشامِ أو لبنان، ولكنَّه في عواطفِهِ الفيَّاضةِ على هذه البلاد الشقيقة لا ينسَى مصر:

نحنو عليكم ولا ننسى لنا وطنًا ولا سريرًا ولا تاجًا ولا عَلَمَا

أحبَّ وطنَه ومواطنيه، وحبَّبه وحبَّبهم إلى الجميع:

وزينبُ إنْ تاهَتْ وإن هي فاخرتْ فما قومُها إلَّا العشيرُ المحبَّبُ

ومن أجلِ كلِّ هذا اشتركتْ جميعُ البلادِ العربيةِ بفجيعةِ مصرَ بابنها البار، وعقدت له حفلات التأبين والرثاء كأنَّ المصاب مصابها، وها هي اليوم قد أوفدت أنجبَ أبنائها، من العراق، إلى فلسطين وشرق الأردن، إلى الشام ولبنان؛ لحمل عزاء الملايين من الناطقين بالضاد إلى إخوانهم أبناء مصر؛ لأنَّ شوقي الذي تغنَى بشعره، وهو شاعرُ الإسلام، أبناءُ سائر الأديان، يدَّعيه، وهو شاعر مصر، أبناءُ سائر الأوطان، فكان أعظم دعاية حية لمصر في حياته وفي مماته، فحقَّ له أن يزهوَ ويقول كما قال:

رُواةُ قصائدي فاعجبْ لشعرٍ بكلِّ محلَّةٍ يرويهِ خَلْقُ

وتَرُ الحكمة

وهناك وَترٌ ثالثٌ شدَّه أميرُ الشعراء إلى قيثارته كما شدَّه غيره من الشعراء، عنيتُ به وتر الحِكمة، أو الاجتماعيات، وله فيه أيضًا الشيء الكثير، ولا عجبَ أن تكثر الحكم والنصائح وضروبُ الإرشاد في شعر من تغنَّى بالدين والوطن، وقد أشار شوقي نفسه إلى ذلك، بل رأى الحكمة فنًّا من فنون الشعر الرئيسية:

نصيحةٌ ملؤها الإخلاصُ صادقةٌ والنصحُ خالصُهُ دِينٌ وإيمانُ
والشعرُ ما لم يكنْ ذكرى وعاطفة أو حكمةً، فهو تقطيعٌ وأوزانُ

وقد امتاز بما استخرجَهُ من هذا النوع أيضًا وطبَعهُ بطابعهِ الخاص، شأنه فيه شأنُهُ في الألحان التي استنبطها من سائر الأوتار.

فقد امتازت حكمه واجتماعياتُه بسهولة معناها ورُواءِ مبناها، فجمعت إلى أُبَّهةِ الحكمة وجلالتها عذوبةَ الحياة وطلاوتها، ففلسفته في الحياة فلسفةٌ باسمةٌ، لا عبوس فيها ولا تجهُّم، فهي الحكمةُ تحمل زهرًا، وهي فلسفةٌ هيِّنةٌ سهلة، لا تصعيب فيها ولا تعقيد، بل تبدو وضَّاحة المذهب، سهلة المطلب، لا يقصد منها إلَّا إلى العدل والوئام ومكارم الأخلاق.

يدعو إلى الإنصاف:

فهو الذي يبنِي الطباعَ قويمةً وهو الذي يبنِي النفوسَ عدولا
ويُقيمُ منطقَ كلِّ أعوجِ منطقٍ ويُريهِ رأيًا في الأُمورِ أصيلا

وإلى الصبر لإدراك المنى:

كم صعَّبَ اليومُ من سهلٍ هممتَ بهِ وسهَّلَ الغَدُ في الأشياءِ ما صَعُبا

وإلى العدل في تدبير الملك:

والعدلُ في الدُّولاتِ أُسٌّ ثابتٌ يُفنِي الزمانَ ويُنفِدُ الأجيالا

وإلى الرفق في سياسة الناس:

إن ملكتَ النفوسَ فابغِ رضاها   فلها ثورةٌ وفيها مضاءُ
يسكنُ الوحشُ للوثوب من الأَسـ   ـرِ فكيف الخلائقُ العقلاءُ

وإلى الثبات وتعاون الأجيال:

والناسُ باني بناءٍ أو مُتمِّمُهُ   وثالثٌ يتلافَى منه ما انهدما
تعاونٌ لا يَحُلُّ الموتُ عُروتَهُ   ولا يُرى بيدِ الأرزاءِ منفصما

يقولُ بالتسليم لإرادة الله فهو صاحبُ المشيئةِ العليا:

ربِّ إنْ شئتَ فالفَضاءُ مضيقٌ   وإذا شئتَ فالمضيقُ فضاءُ

ولكنَّه يُندِّدُ بالاستسلام لخطوب الدهر:

لا تقولوا «حطَّنا الدهرُ» فما   هو إلَّا من خيالِ الشعراءِ

كما يُبرِّئُ القدر مما نحمِّله من نتائج إهمالنا وتهاوننا:

قال ناسٌ صرعةٌ من قَدَرٍ   وقديمًا ظَلَم الناسُ القَدَرْ

يُنادي بوجوب تعليم المرأة وتربية الأسرة:

وإذا النساءُ نشأنَ في أُمِّيَّةٍ   رَضَعَ الرجالُ جهالةً وخمولا
ليس اليتيمُ مَنِ انتهى أبواهُ من   همِّ الحياةِ وخلَّفاهُ ذليلا
فأصابَ بالدنيا الحكيمةِ منهما   وبحسن تربيةِ الزمانِ بديلا
إنَّ اليتيمَ هو الذي تلقَى لهُ   أُمًّا تخلَّتْ أو أبًا مشغولا

يرى السعادة في غير ما يراه الناسُ عادةً:

فإن السعَادةَ غيرُ الظهو ... رِ، وغيرُ الثراءِ، وغيرُ التَرَفْ

ويرى رأيَ عنترة الذي قال:

لا يحملُ الحقدَ من تعلو بِهِ الرتبُ ... ولا ينالُ العلى مَن طبعُهُ الغضبُ

فيقول بالمعنى عينه:

وإنَّ للمجدِ آفاتٍ إذا جُمِعَتْ ... وجدتَها اثنتين: الحقدَ والغضبا

أمَّا الحسَدُ فلا يتجهُ إلَّا إلى الفضل:

آيةُ الفضلِ أن تُعادَى وتحسَدْ

وأمَّا الأخلاقُ فقد أكثر من ذِكرها والحثِّ عليها، فبها تحيا الأمم، وبها يسعد الأفراد، وله فيها بيتٌ لا نعرف له ضريعًا في كثرة الاستشهاد به: يوُرده الخطباء في خطبهم، ويضمنه الشعراءُ قصائدَهم، ويُردِّده الناسُ في أحاديثهم، بل إن مسرحًا من مسارحنا الوطنية اتخذه شعارًا له فنقشه بحروفٍ كبيرةٍ فوق الملعب:

وإِنَّما الأُمَمُ الأخلاقُ ما بقيتْ ... فإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخلاقُهم ذهبوا

وقد يُعيد هذا المعنى مرارًا لترسيخه في العقول وطبعه في النفوس، فيقول تارةً:

وإذا أُصيب القومُ في أخلاِقهم ... فأَقِمْ عليهم مأتمًا وعَويلا

وتارةً:

وما السلاحُ لقومٍ كلُّ عدَّتهم ... حتى يكونوا من الأخلاقِ في أُهُبِ

ومرة أخرى:

تخلَّقِ الصفح تسعَدْ في الحياةِ بِهِ　　فالنفسُ يُسعِدُها خُلْقٌ وَيُشقيها

فعليها تُبنَى الممالكُ وتشادُ:

على الأخلاقِ خطُّوا الملك وابنوا　　فليس وراءَها للعزِّ ركنُ

وبها دون سواها ترتقي الشعوب:

وليسَ بعامرٍ بنيانُ قومٍ　　إذا أَخلاقُهم كانت خرابا

وإذا هي سلمتْ فكلُّ شيءٍ سالم:

ولا المصائبُ إذ يُرمَى الرجالُ بها　　بقاتلاتٍ إذا الأخلاقُ لم تُصَبِ

أمَّا طريقتُهُ في النصح والإرشاد فالملاينة والتلطف:

آفَةُ النصحِ أنْ يكونَ لجَاجًا　　وأذى النصحِ أن يكونَ جِهارا

ولا سيما إذا كان النصحُ موجَّهًا إلى الشبان:

قُلْ للبنين مقالَ صدقٍ واقتصدْ　　ذرعُ الشبابِ يضيقُ بالنصَّاحِ

ويجب أن يوجَّه النصحُ إلى العقل حينًا، وإلى القلب حينًا آخر:

والنصحُ متَّهَمٌ وَإِنْ　　نَثَرَتْهُ كالدرِّ الشفاهْ
أُذنُ الفتى في قلبهِ　　حينًا، وحينًا في نُهاهْ

ويقتبس غالبًا حكمَه ونصائحه من حوادث التاريخ:

واقرءوا آدابَ مَنْ قَبلَكم ربَّما علَّم حيًّا من غَبَرْ

فالتاريخ أبو العبر، ولا سيما تاريخ مصر:

إنَّ مصرَ روايةُ الدهرِ فاقرَأْ عبرةَ الدهرِ في الكتابِ العتيقِ

أكتفي بهذا القدر من حِكمِه، ففيه وفي ما تقدَّم إيرادُه من هذا النوع في شعره الديني وشعره الوطني ما يغني عن الإسهاب وزياد التبسُّط؛ للدلالة على أنَّ الحكمة قد جاءت في تضاعيف قصائده بلا تصنُّع ولا تكلُّف في لفظها وفي معناها، فهو لا يتوخَّى فيها التعمُّق في التحليل ولا الغوص في ثنايا الفكر والنفس ليظفر بالحقائق، بل يتناولها مما يخطر ببال كل إنسان، وينطق به كل لسان، ثم ينثر دقائقها عفوًا في بيتٍ أو بيتين، أو في جملة اعتراضية أو شطرةٍ من بيت، فتجيء جليَّةَ القصد قريبة النفع، كأنها في روض شعره الثمرُ الشهي بين الزهر البهي، ويجيء شعره معها غذاءً للعقول وريًّا للنفوس، كما هو بهجةٌ للقارئ ونعمةٌ للسامع.

الوتَر المصور

وهناك أيضًا وَترٌ طالما غنَّانا بما يطرب الأسماع، ويفتن الأبصار كذلك، كأنَّ نغماتِه تتحوَّل ألوانًا تصوِّر، هو وتر الوصف: وصف الأشياء ووصف الأشخاص.

رأى شوقي في حياتِه كثيرًا وعرف كثيرًا فوعى كثيرًا.

رأى مصر وآثارها الخالدة، رأى أوروبا ومعالمها العامرة، رأى الشام وجبالها الشاهقة، عاشر السلاطين والملوك وطاف بين كثير من الأمم والشعوب.

وكأنَّ ما كان في عينيه من ارتجاج عصبي، جعلهما كالزئبق الرجراج، قد ساعده على أن يستجمع بلحظةِ عينٍ ما لم يره غيره، فكان بنظره الجوَّال يتناول دقائق المرئيات فيستوعبها في حافظته، وما لم يره بأمِّ عينه نظر إليه بعين خياله؛ لمحةٌ عين أو لمحة قلب كانت تكفيه ليطبع في خاطره رسم الأشياء والأشخاص، ثم يجيء بكل ذلك وصفًا أخَّاذًا، وصورًا ضاحكة خلابة.

يطول بنا الوقوف عند كل ما وصف وصوَّر من آثار الطبيعة وآثار البشر؛ مصر وكل ما فيها، والأستانة، والبوسفور، وأيا صوفيا، وباريس، وغاب بولونيا، ودمشق، ولبنان، والهلال، والربيع، والمرقص ... إلخ، ولكنني أقتطف من ذلك، على سبيل المثال، بعضَ مقاطع يكادُ كلٌّ منها يكون صورةً شمسية أو لوحةً فنية دقيقة التفصيل، مستكملة الحسن، وهكذا يتحوَّل وحيُ الشعر ونغمُ الموسيقى ريشةً تصوِّر بالألوان، وهذه هي صلةُ النسب بين الفنون الجميلة، وهكذا يتحوَّل هذا الباب في ديوان شوقي متحفًا عامرًا ببدائع الرسم والتصوير.

هل زرتم هيكل أنس الوجود، ورأيتم مياه النيل قد كادت تغرقه ...؟ وإلَّا فانظروا صورته في هذه الأبيات:

قِف بتلك القصورِ في اليمِّ غَرقى ... مُمسكًا بعضُها من الذُّعرِ بعضا
كعذارى أَخفينَ في الماءِ بضًّا ... سابحاتٍ به، وأَبدينَ بضَّا
شابَ من حولها الزمانُ وشابت ... وشبابُ الفنونِ مازال غضَّا
رُبَّ نقشٍ كأنما نفض الصا ... نعُ منهُ اليدينِ بالأمس نفضا
ودُهانٍ كلامعِ الزيت مرَّت ... أعصرٌ بالسراج والزيتُ وضَّا
وخطوطٍ كأنَّها هُدْبُ ريمٍ ... حسُنتْ صنعةً وطولًا وعرضا
وضحايا تكادُ تمشِي وترعَى ... لو أَصابت من قدرة الله نبضا
ومحاريب كالبروج بنتها ... عَزَماتٌ من عزمةِ الجنِّ أمضى

ومن لم يَر قبرَ توتنخ آمون وما وجدَ فيه مستكشفُهُ من جواهرَ وطيوب يومَ:

أفضى إلى ختم الزمان ففضَّه ... وحبا إلى التاريخ في محرابهِ

فلينظرْ إليهِ مصوَّرًا في هذا البيت:

وقبرًا كان من حُسنٍ وطيبٍ ... يُضيء حجارةً ويضوعُ طينا

الأكثرون منَّا لم يروا الغوَّاصة ولكنهم يرونها، كما وصفها شوقي، مرسومةً على لوحة السينما:

ودبَّابةٍ تحتَ العُباب بمكمنٍ	أمينٍ ترى الساري وليسَ يراها
هي الحوتُ أو في الحوتِ منها مَشابةٌ	فلو كان فولاذًا لكان أخاها
أبَثُّ لأصحابِ السفين غوائلًا	والأمُ نابًا حين تفغَرُ فاها
خَئونٌ إذا غاصت غدورٌ إذا طفتْ	مُلَّعنةٌ في سَبْحِها وسُراها

وشاهدوا بعد ذلك في قصيدة أو صورة أخرى كيف تهاجم هذه الغوَّاصة السفينةَ وتغرقها:

بَعَثَ البحرُ بها كالموجِ من	لُجَجِ السِّندِ وخُلجانِ الخَزَرْ
لَمسَتْها للمقاديرِ يدٌ	تلمسُ الماءَ فيرمِي بالشررْ
ضَرَبْتها وهي سِرٌّ في الدُّجى	ليس دونَ اللهِ تحتَ الليلِ سرْ
وَجَفَتْ قلبًا وخارت جؤجُؤًا	وَنَزَتْ جنبًا وناءَت من أُخُرْ
طُعِنَتْ فانبجستْ فاستصرخَتْ	فأتاها حَينُها فهي خبرْ

أمَّا وصفه للطيارة منذ ثماني عشرة سنة، فلم نقرأ وصفًا يدانيه لشعراءِ الأمم التي ابتدعت هذا المركب الهوائي:

نصْفُهُ طيرٌ ونصفٌ بشرٌ	يا لها إحدى أَعاجيبِ القضاءِ!
حَمَلَ الفولاذَ ريشًا وجرى	في عنانينِ له نارٍ وماءِ
وجناحٍ غيرِ ذي قادمةٍ	كجناحِ النحلِ مصقولٍ سواءِ
وذُنابَى كلُّ ريحٍ مسَّها	مسَّهُ صاعقةٌ من كهرباءِ
يتراءَى كوكبًا ذا ذنبٍ	فإذا جدَّ فسهمًا ذا مضاءِ
فإذا جاز الثُّريَّا للثرى	جرَّ كالطاووسِ ذيلَ الخيَلاءِ

واسمعوا وصفَه معركة «أسترليز» الذي انتصر فيها نابوليون، الملقَّب بالنسر، على إمبراطوري روسيا والنمسا، فعرفت بمعركة الإمبراطرة الثلاثة، وهي صورةٌ لم يَرسم مثيلًا لها غير فيكتور هوجو شاعر نابوليون.

حَوْلَ أُسترليزَ كان الملتقَى واصطدامُ النسرِ بالمستنسرينْ
وُضِعَ الشطرنجُ فاستقبلتَهُ ببنانٍ عابثٍ باللاعبينْ
فإذا المَلْكانِ هذا خاضعٌ لك في الجمع وهذا مستكينْ
صِدْتَ شاهَ الروسِ والنمسا معًا مَنْ رأَى شاهَينِ صِيْدَا في كمينْ؟

وهذه صورة لدمشق من نوع تصوير المناظر الطبيعية:

دخلتكِ والأصيلُ له ائتلاق ووجهكِ ضاحكُ القَسَمَاتِ طَلْقُ
وتحت جنانِكِ الأنهارُ تجرِي وملءُ رباكِ أوراقٌ ووُرْقُ

وترى كلَّ ألوانِ الخيال تتسابق تحت ريشته في وصف لبنان:

لبنانُ والخُلدُ اختراعُ اللهِ لم يُوسَمْ بأزين منهما ملكوتُهُ
مَلِكُ الهضابِ الشُّمِّ سلطانُ الربى هامُ السحابِ عروشُه وتخوتُهُ
وكأَنَّ أيامَ الشبابِ ربوعُهُ وكأَنَّ أحلامَ الكعابِ بيوتُهُ
وكأَنَّ ريعانَ الصبا رَيحانُهُ سرُّ السرورِ يجودُهُ ويوقوتُهُ
وكأَنَّ أثداءَ النواهدِ تينُهُ وكأَنَّ أقراط الولائدِ توتُهُ

زُرتم معرضَ الصور الأخير، ورأيتم فيه لوحاتٍ كثيرة تمثِّلُ نَخِيلَ مصر، فهل رأيتم أبدعَ من هذا التصوير:

مآذنُ قامت هنا أو هناك ظواهرُها دَرَجٌ من شذَبْ
وليس يُؤذِّنُ فيها الرجالُ ولكن تصيح عليها الغرُبْ …
تُخالُ إذا اتَّقدتْ في الضُّحى وجرَّ الأصيلُ عليها اللهَبْ
وطافَ عليها شعاعُ النهارِ من الصحو أو من حواشي السُّحُبْ

وصـيـفـةَ فـرعـونَ فـي سَـاحـةٍ   مـن الـقـصـر واقـفـةً تـرتـقـبْ
قد اعتصبتْ بفصوصِ العقيقِ   مـفـصَّـلـةً بـشـذورِ الـذهـبْ
ونــاطــت قــلائــدَ مُــرجـانِـهـا   على الصدرِ واتشجَّتْ بالقصبْ
وشـدَّت عـلـى سـاقـهـا مـئـزرًا   تَـعـقَّـد مـن رأسِـهـا لـلـذَّنَـبْ

وزاد، وهو ما لا يستطيعه المصور:

أهذا هو النخلُ مَلْكُ الرياضِ   أميرُ الحقولِ عَرُوسُ العزَب
طعامُ الفقيرِ وحلوى الغنيِّ   وزادُ المسَافرِ والمغتربْ

وإذا وصف هذا النخلَ في يومٍ غائم قال:

والنخلُ متَّشِحٌ بالغيم تحسبهُ   هيفَ العرائسِ في بيضٍ من الأُزُرِ

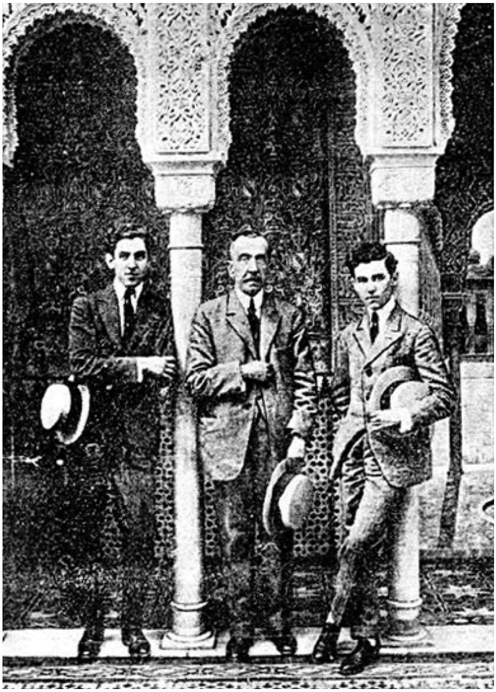
وإذا وصف النيل صوَّره بالألوان:

النيلُ العَذْبُ هو الكوثَرْ   والجنَّةُ شاطئُهُ الأخضرْ
ريَّانُ الصفحةِ والمنظَرْ   ما أبهى الخُلْدَ وما أنضَرْ
حبشيُّ اللونِ كجيرتهِ   من منبعهِ وبُحيرتهِ
صَبغَ الشطَّينِ بسُمرتهِ   لونًا كالمسكِ وكالعنبَرْ

ففي كل ما تقدَّم يُرينا الشاعرُ هذه الموصوفاتِ رأيَ العينِ مع كثيرٍ من الرونق والرواء.

وهو يجيد وصف المعنويات إجادته وصف المحسوسات، فيجعل البعيد قريبًا، والغائب شاهدًا، والخفيَّ ظاهرًا، كلُّكم يعرف هذين البيتين، وقد لخص فيهما رواية الحب بجميع فصولها الطويلة:

نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ   فكلامٌ فموعِدٌ فَلِقَاءُ
ففراقٌ يكونُ فيه دواءٌ   أو فِراقٌ يكون منهُ الداءُ



شوقي ونجلاهُ عليٌّ وحُسين في «الحمراء» بإسبانيا قبل عودته من المنفى.

وإليكم تلخيص النظام الحكومي في الإسلام:

فرسمتَ بعدك للعبادِ حكومةً — لا سُوقةٌ فيها ولا أُمراءُ
اللهُ فوقَ الخلقِ فيها وحدَه — والناسُ تحتَ لوائها أكفاءُ
والدينُ يُسْرٌ والخلافةُ بيعةٌ — والأمرُ شُورَى والحقوقُ قضاءُ
الاشتراكيون أنت إمامُهم — لولا دعاوي القوم والغُلَواءُ

أَوَليس في هذه الأبيات القليلة نصوصٌ وأحكامٌ مفصَّلةٌ في عشرات المواد من دساتير الأمم؟

وهذا تلخيص لضروب الحكام الذين توالوا على عرش بني عثمان:

قياصرُ أحيانًا خلائف تارةً   خواقينُ طورًا والفخارُ المقلَّبُ

ومن الصور ما لا تكثرُ فيه التفاصيل، بل إنَّ خطوطًا قليلةً تمثل لنا أوفَى تمثيل ما أراده المصوِّر، وعند شوقي الكثير من هذه الصور السريعة العجلى في بيتٍ أو شطرٍ من بيت.

منها صورة المدفع عند إطلاقه:

إِذا عصف الحديدُ احمرَّ أُفقٌ   على جَنَبَاتِه واسوَدَّ أُفقُ

وصورة فرح الجنود:

طارت قناها سرورًا عن مراكزها   وألقَتِ الغمدَ إعجابًا مواضيها

وصورة الفارس المغوار (أنطونيو) في المعركة:

قد جُنَّ تحتي جوادِي فهو عاصفةٌ   وجُنَّ نصلي بكفِّي فهو إعصارُ

وصورة أقسام الجيش المنكسر وفراره:

لمَّا صدعتَ جناحَيهم وقلبَهمُ   طاروا بأجنحةٍ شتَّى من الرعَبِ

وصورة أسراب الطيارات، وهي تتضاءَلُ كلَّما حلَّقت صعودًا:

ذهبَتْ تسمو فكانت أعقُبًا   فنسورًا فصقورًا فحَماما

وصورة سوق الإحسَان والبائعات:

جبريلُ يعرضُ والملائكُ باعةٌ   أين المساوِمُ في الثوابِ المشترِي

وإذا وصف يدَ الضريرِ تتلمَّسُ الأشياءَ قال:

ويدُ الضرير وراءَها عينٌ ترَى

وهل أبدعُ وأروع من هذه الصورة لاستماع الليل نداءَ المغنِّي الشجِيِّ:

يسمعُ الليلُ منه في الفجرِ «يا ليــ   ــلُ» فيصغِي مستمهلًا في فرارهْ

ويدخلُ في أنغام هذا الوتَر — وتر الوصف — المدحُ والرثاء؛ لأنَّهما ما خرجا عن أن يكونا وصفًا لأخلاق الناس وطباعهم، ووصفًا لأعمالهم وآثارهم، وهنا كان لنقَّادِ شوقي مجالٌ ليُؤَاخذوه بتعدُّد ممدوحيه واختلافهم، ومغالاته في الإِطنابِ بهم والإِغراق في أوصافهم؛ فاستنكروا الأنغامَ المتضارِبةَ المتنافِرة التي أخرجها من هذا الوَتَر.

أمَّا تعدُّد الممدوحين واختلافهم، فيشفَع بالمادح أنه توخَّى دائمًا غرضًا واحدًا في مدحهم، فإذا مدح على التوالي السلطانَ عبد الحميد، ورجالَ الاتحاد والترقي الذين خلعوه، وإذا أطنب ذكر رجالِ أنقره، بعد أن أطنب بذكر سلاطين الأستانة، فإنه قد غيَّر اسم الممدوح ولم يغيِّر مقصدَه من المدح، أو إن شئتم قولوا إنه بدَّل العنوانَ ولم يُبدِّل ما تحت العنوان، فهو دائمًا يطالب ممدوحَه بالإصلاح، ونشر الثقافة والعلم، وإقامة العدل، وبناء الملك على الشورى والدستور، ولقد قلنا في غير هذا الموقف[١٨] إنَّ الشاعرَ شاعرٌ أيًّا كان الرويُّ الذي يختاره لقصيدته ما دامت نفسه حسَّاسة، وقريحته فيَّاضة بالشعور، وهل اسم الممدوح في شعر شوقي سوى الرويِّ، وهو القائل:

ولي غُزَر الأخلاق في المدح والهوى

أمَّا مغالاتُهُ في هذا النوع من الوصف، ووضعُه الرجالَ الذين يصفهم — مدحًا أو رثاءً — فوقَ عامَّة البشر، فإنه يرجعُ إلى وصفه الناسَ كما يجب أن يكونوا، لا كما هم، ولهذا المذهب الأدبي أنصاره، وحاملُ لوائهِ الشاعر الفرنسيُّ «كورنيل» في رواياته التمثيلية، ونقيضُه فيه معاصره الشاعر «راسين»، فقالوا: إن الأول صوَّر أبطالَ رواياته

---

[١٨] راجع البحث بهذا الموضوع في فصل شوقي شاعر الأمراء.

كما يجب أن يكونوا، والثاني صوَّرهم كما هم؛ لذلك نعجبُ بأبطال الأول، ولكننا نحبُّ أبطال الثاني، ولذلك أيضًا يرتاحُ الكثيرون إلى مدائح شوقي؛ لأنَّها تحبِّبُ إلى الممدوح الصفات التي قد لا تكونُ فيه في حين ينبغي أن يكونَ متحليًا بها، كما أنها تحبِّبُها إلى سائر الناس، فتجيء من هذه الناحية دعوةً إلى الكمال النفسي ومكارم الأخلاق.

ولقد أشار شوقي إلى مذهبه في المديح حيث قال:

يُظهِرُ المدحُ رونقَ الرجلِ الما … جِد كالسيفِ يزدهي بالصقالِ
رُبَّ مدح أذاعَ في الناس فضلًا … وأتـاهـم بـقـدوةٍ ومـثـال
وثـنـاءٍ عـلـى فـتًـى عـمَّ قـومًـا … قيمةُ العقدِ حسنُ بعضِ اللآلي

وعلى كلٍّ فإنَّ ما تضمنته المدائحُ الشوقية من النصائح والحِكم والإرشادِ، ومطالبةِ الممدوح بما نرتاحُ إليه ونريدُهُ أن يكونَ عليه، لَممَّا يسيغُ إغراقَه وغلوَّه.

وإذا كان قد مدح الكثيرين ممَّا حملَ البعض على اتهامه في إخلاصه وصحة اعتقاده في مديحه، فإنَّ الذين رثاهم، مخلصًا لهم بعد مماتهم؛ أوفرُ عددًا، حتى إن مراثيه لتؤلِّف جزءًا كاملًا من ديوانه، وهذا دليل الوفاء، والبر بالأصدقاء، يؤيدُ ما نقول أن أحد وزراء مصر كان قد أتى عملًا لا يتَّفق وصدق الوطنية فندَّد شوقي بهذا العمل في إحدى قصائده، ولكن لما تُوفِّي ذلك الوزير رثاه شوقي رثاءً بليغًا، وأشار إلى فعلته السابقة إشارةً لطيفة فقال:

أخذتُك في الحياةِ على هناتٍ … وأيُّ الناسِ ليسَ لهُ هناتُ
فصفحًا في الترابِ إذا التقينا … ولُوشِيَتِ العداوةُ والتراتُ
خُلِقتُ كأنَّني عيسَى، حرامٌ … على قلبي الضغينةُ والشماتُ

الوَتر الخاص

وهناك وترٌ خامسٌ في قيثارة شوقي متنوِّعُ الأنغام، أُسمِّيه من باب التعميم وترَ الشاعر الخاص، المشدود إلى نياط قلبه، المتصل بدقائق شعوره، الناطق بخفيِّ وجدانه، نعم إنَّ ما نظمه في الدين والوطن والاجتماعيات والوصفِ صادرٌ عن شعورٍ عميق، كما رأيتم في

كثيرٍ مما أوردنا من شعره في هذه الأبواب، ولكنَّ قوَّتَي النفس المتغلِّبتين في تلك الأنواع من النظم هما العقل والخيال، أمَّا الشعورُ الخاص، وأما العاطفةُ النفسية، فتظهران في شعرِهِ الليريقي أو الغنائي؛ في الغزل والنسيب، في مناجاته عهدَ الصبا، في بسمته لأولاده وحفدتِه، ودمعته على آبائه وأجداده، وتبسُّطه مع خلانه وأحبابه … فهناك عواطف الحنان ولواعجُ الأشجان، وهناك خفقان الجوارح، ونبضاتُ الفؤاد.

ولكن هنا أيضًا رأى النُّقادُ مجالًا للمؤاخذة: فهذا النوع في نظرهم، قليلٌ في شعر شوقي، وهو على قلَّته، من النوع العاديِّ المطروق.

أمَّا قلَّتُه فقلَّةٌ نسبيةٌ؛ أي بالمقارنة بكثرة ما نظم، ولكن هذا القليل النسبي في الحقيقة كثير يؤلف وحده ديوانًا كاملًا.

وأمَّا رميُه بالابتذال فقد يكون مرجعه إلى أنَّ شوقي لم يعمد إلى تحليل عواطف النفس وميولها وأهوائها تحليلًا دقيقًا، فقد رأينا أنَّ فلسفتَه في اجتماعياته فلسفةٌ سهلةٌ خاليةٌ من التعقيد، وكذلك جاءَ وصفُهُ لتلك العواطف والأهواء وصفًا طبيعيًّا، خاليًا من الإيغال في التفصيل والتعمُّق في التحليل، وقد أعلن ذلك هو نفسُهُ بألطف أسلوب يوم طُلِبَ إليه في بعض مجالس الأدب أن يشطِّر بيتًا للبهاء زهير، فقال على البديهة:

يقولُ أُناسٌ: لو وصفتَ لنا الهوى لعلَّ الذي لا يعرفُ الحبَّ يعرفُ
فقلتُ: لقد ذقتُ الهوى ثمَّ ذُقتُهُ فواللهِ لا أدرِي الهوى كيف يوصفُ

وهو يعود إلى ذلك المعنى فيقول:

مُستَهامٌ في هواهُ مُدْنَفٌ يترضَّى مُستهامًا مُدْنَفَا
يا خليليَّ صِفَا لي حيلةً وأرى الحيلةَ أن لا تَصِفا

وخلاصةُ القول: إنَّ الهوى هو ما يشعرُ به والسلام.

وعندِي الهوى موصوفُهُ لا صِفاتُهُ إذا سألوني: ما الهوى؟ قلتُ: ما بيا …

وعند هذا الحدِّ تقفُ قوَّةُ البشر في عرفه:

صُوني جمالَكِ عنا إننا بَشَرٌ من الترابِ، وهذا الحسنُ روحاني

وهو في غَزَلِه، على وجه الإجمال، لا يخرجُ عن المعروف المألوف قديما عند الشعراء من وصف طول الليل ونواح الطير؛ والدمع والزفرات، والشباب والمشيب، والعيون والقلوب، والخدود والقدود، والكناية بالدرِّ عن الثغور، وبحلوكة الليل عن سواد الشعر ... تشابيهُ وكناياتٌ واستعاراتٌ قديمة، ولكنَّه يكسوها شيئًا من الجدَّة بالقالب الذي يُفرغها فيه:

يا ثغرَها، أمسيتُ كالـْ ـغوَّاصِ أحلمُ بالجواهرْ
يا لحظَها، مَنْ أُمُّها أو مَنْ أبوها في الجآذِرْ
يا شَعرَها، لا تسعَ في هتكي، فشأنُ الليلِ سَاتِرْ
يا قدَّها، حتَّامَ تغـ ـدو عاذلًا وتروحُ جائِرْ
وبأيِّ ذنبٍ قد طعنـ ـتَ حشايَ يا قدَّ الكبائرْ

وإذا تكلَّم عن قلبهِ، قال كغيره من الشعراء إِنَّه خفق في ضلوعهِ، وسال في دموعه، ولكنه يجدِّد المعنى بالمقاربة بين الضدَّين:

تسرَّبَ في الدموع فقلتُ وَلَّى وصفَّق في الضلوع فقلتُ ثابا

ومع ذلك فكثيرًا ما نسمَعُ لقلبهِ نبضةً خاصةً عندما يضرب على هذا الوتر متألمًا، فيحرِّك أوتارَ القلوب، كقوله يُناجي من منفاه أحبابَه وعهدَه الماضي في وطنه:

باللهِ يا نَسماتِ النيلِ في السَّحَرِ هلْ عندَكنَّ عنِ الأحبابِ من خَبَرِ
هِجتُنَّ لي لوعةً في القلب كامنةً والجرحُ إن تَعترضْهُ نسمةٌ يَثُرِ
ذكرتُ مصرَ ومن أهوَى ومجلسَنا على الجزيرةِ بين الجسرِ والنَّهَرِ
وما شجانيَ إلَّا صوتُ سَاقيةٍ تستقبلُ الليلَ بين النوح والعِبَرِ

لا تجيشُ بين ضلوعهِ تلك العواطفُ الثائرة المتمرِّدة، تنبعث انبعاثَ الحمم المتَّقِدة من البراكين، وإن كان يقول:

ناقوسُ القلبِ يدقُّ لهُ　　وحنايا الأضلُعِ معبدُهُ

بل إنَّ العواطفَ التي تفيضُ من قلبهِ عواطفُ هادئةٌ هنيَّة، تسيلُ كجدولِ الماءِ المترقرق؛ فهو يدعو عادةً إلى الرأفةِ وكرَم الطباع:

إنَّ الشجاعةَ في الرجالِ غلاظةٌ　　ما لم يَزِنْها رأفةٌ وسخاءُ

فسبيلُ القلوب خيرُ السُّبُلِ:

يا مالكًا رقَّ الرقابِ ببأسِهِ　　هلَّا اتَّخذتَ إلى القلوبِ سبيلا

وأمَّا الإحسان فهو عنوان الإنسانية:

المحسنونَ همُ اللبا　　بُ وسَائرُ الناسِ النُّفَايَهْ

يطلبُ الثوابَ للمحسنِ، فقيرًا كان أم غنيًّا:

جبريلُ هلِّلْ في السماء وكبِّرِ　　واكتبْ ثوابَ المحسنينَ وسطِّرِ
سَلْ للفقيرِ على تكرُّمِهِ الغنى　　واطلبْ مزيدًا في الرخاءِ لموسرِ

ويطلب من المحسن إليه مقابلةَ الإحسان بالشكران:

هل ترى أنتَ؟ فإني لم أجدْ　　كجميلِ الصنعِ بالشكرِ اقترانا
وإذا الدنيا خَلَتْ من خيِّرٍ　　وخلت من شاكرٍ هانَتْ هوانا

يعرفُ مريديهِ وخصومَهُ:

اللهُ يعلمُ ما نفسي بجاهلةٍ   مَنْ أهلُ خلَّتِها ممن يُعادِيها

ولكنه يُحِبُّ الترفُّقَ والمداراة:

تغابيتُ حتى صحبتُ الجهولَ   وداريتُ حتى صحبتُ الحسودْ

يذهبُ مذهبَ زُهيرِ بن أبي سُلمى القائل:

ومَنْ لم يصانعْ في أمورٍ كثيرةٍ   يُضرَّسْ بأَنيابٍ ويُوطَأْ بمنسِمِ

فيقول:

ومن لم يُقِمْ سترًا على عيبِ غيرهِ   يَعِشْ مُستباحَ العرضِ منهتِكَ السِّتْرِ

وهو لذلك لا يُضمِرُ ضغنًا ولا يحملُ حقدًا:

سُحِبَتْ على الأحقادِ أذيالُ الهوَى   ومشَى على الضغْنِ الودادُ الماحي

وإذا اختلفت الآراءُ فإنَّ اختلافَها ينبغي ألَّا يتسرَّب إلى القلوب، قال في إحياءِ ذكرى قاسم أمين:

لقد اختلفنا والمُعا   شِرُ قد يُخالفُهُ العشيرْ
في الرأي تضطغِنُ العقو   لُ وليسَ تضطغِنُ الصدورْ

أمَّا القول، حَسُنَ أو ساءَ، فهو مرآة النفس:

والقولُ إن عفَّ أو سَاءَت مواقعُهُ   صدى السريرةِ والآدابِ يحكيها

وعلى كلٍّ فهذه فطرته:

فطرتي، لا آخذُ القلبَ بها　　خُلِقَ الشاعرُ سمحًا طَرِبا

أمَّا برُّه بآبائه، وحدْبُهُ على أولاده فمثال عاطفتَي الأبوَّة والبنوَّة: يلتفتُ إلى الماضِي فيُثِيرُ منه ذكرياتٍ ضاحكةً أو باكية، قال في جدته:

لِـي جَـدَّةٌ تـرأَفُ بـي　　أحنى علـيَّ من أبـي
وكـلُّ شـيءٍ سـرَّنـي　　تذهـبُ فيـه مذهـبـي
إن غَضِبَ الأهل عليَّ　　كلُّهـمْ، لـم تـغـضـبِ
مشى أبـي يومًا إلـيَّ　　مـشـيـةَ الـمـؤدِّبِ
غَضْبانَ قد هدَّدَ بالضـَّ　　ـربِ، وإن لم تَضْرِبِ
فلم أَجِدْ لي منهُ غَيـْ　　ـرَ جَدَّتي مِن مَهْرَبِ
فـجـعـلَـتْـنـي خَـلـفَـهـا　　أنـجـو بـهـا وأخـتـبـي
وهــي تــقــولُ لأبــي　　بـلـهـجـةِ الـمُـؤنِّـبِ:
وَيـحَ لـه! وَيْـحَ لـهـــ　　ــذا الـوالِـدِ الـمُـعـذِّبِ!
ألـم تَـكُـن تَـصْـنَـعُ مـا　　يَصْنَعُ إذْ أَنتَ صَبي؟

وقال في رثاءِ والدهِ، وقد أفضى إلينا مرارًا أنها من قصائدهِ المفضَّلة في نظره:

أنـا مَـن مـاتَ ومَـنْ مـات أنـا　　لـقـيَ الـموتَ كلانـا مرَّتَـيـنْ
نـحـنُ كـنَّـا مـهـجـةً فـي بـدنٍ　　ثمَّ صِرنا مهجةً في بدنَينْ
ثـمُّ عُـدنـا مـهـجـةً فـي بـدنٍ　　ثمَّ نُلفَى جثةً في كفنينْ
ثـمَّ نَـحـيَـا فـي «عَـلِـيٍّ» بـعـدنـا　　وبـهِ نُـبعَـث أولـى الـبعـثـتـين
انظرِ الكون وقلْ في وصفهِ:　　كلُّ هـذا أصـلـه مـن أبـويـن
فـقـدا الـجـنـة فـي إيـجـادِنـا　　ونَعِمْنا منهما في جنَّتين
مـا أَبِـي إلَّا أَخٌ فـارقـتُـهُ　　ودُّهُ الصدقُ وودُّ الناسِ مَينْ
طـالـمَـا قـمـنـا إلـى مـائـدةٍ　　كانتِ الكسرةُ فيها كسرَتين
وشـربـنـا مـن إنـاءٍ واحـدٍ　　وغسلنا بعد ذا فيه اليدَين

وتـمـشَّـيـنـا يـدِي فـي يـدِهِ   مـن رآنـا قـال عـنـا أَخـوَيـن
وإذا مـتُّ وأُودعـتُ الـثـرى   أنُلقَّى حفرةً أم حفرتين ...؟

«ثمَّ نحيا في عليٍّ بعدَنا ...» هكذا بعد أن بكى نفسَهُ في أبيهِ الراحل، يراها تُبعَثُ في ابنه الناشئ، فيقول في نجله «عليٍّ»:

وأَنتَ مني كروحِي   وأَنتَ مَنْ أَنتَ عندِي

فينصرفُ إلى مناغاةِ أولادِه، وكأَنَّهُ يحوطهم بشعرهِ كما يحوطهم بحنانهِ وبرِّه، فإذا مرض نجلُهُ «حسين» مرض معه، وعُوفِيَ معه:

جرحُهُ كان بقلبي، يا أبًا[١٩]   لا أُنبِّيهِ بجرحِي كيف كانا
لطفَ اللهُ فعُوفينا معًا   وارتهنَّا لكَ بالشكرِ لسَانا

وإذا وصف كريمتَه الطفلة قال:

كم خفق القلبُ لها   عند البُكا والضَّحِكِ
فإِن مشتْ فخاطرِي   يسبقُها كالممسكِ

فاخر أميرُ الشعراءِ وباهَى بشعرهِ في الدين والوطن والحكمة، فقال تارةً:

وإني لطيرُ النيلِ لا طيرَ غيرهُ

وتارةً:

إذا قُلتُ شعرًا فالقوافِي حواضر

---

[١٩] الخطاب موجه إلى الجرَّاح الأكبر علي باشا إبراهيم.

ولكننا نراه أكثرَ تواضُعًا في هذا الباب؛ كأَنَّهُ في ما أخرجَهُ من نغماتِ هذا الوتر الخاص، غزلًا ونسيبًا ووصفًا لنفسيَّاتِهِ في مظاهرِها المنوَّعة، يشكُّ في صحَّةِ تعبيرِهِ عن حقيقةِ شعوره ولواعج قلبه، فيتسَاءَلُ:

والشعرُ دمعٌ ووجدانٌ وعاطفةٌ   يا ليتَ شعريَ هل قلتُ الذي أَجِدُ

قال أحدُ شعراءِ الفرنجةِ: «إن أبدعَ أشعاري هي التي في خاطرِي لم أنظمها.» وقال شوقي:

هو لحنٌ مُضيَّعٌ لا جوابًا   قد عرفنا لهُ ولا مُستقرَّا
لك في طيِّهِ حديثُ غرامٍ   ظلَّ في خاطرِ الملحِّنِ سرَّا

وفي قيثارةِ الشعرِ وترٌ ضربَ عليه الكثيرون من الشعراء، فلم يُوفقوا في الغالبِ إلَّا لاستخراج أصواتٍ منكرةٍ، مجونًا وهجاء، وقد قطعَ شوقي هذا الوتر من قيثارتهِ، فكان عَفَّ الإلهام كما كان عَفَّ اللسَان، حتى لتستطيع أن تُلقِي بديوانِه جملةً بين يدَي العذراءِ في خدرها، تطالعهُ فلا تجد فيه ما يحمَرُّ لهُ وجهها خجلًا، وقد قال المرحوم إسماعيل صبري باشا — وهو من كنا نلقبُهُ بأستاذ الشعراء — في تقريظه «الشوقيات»:

مرحبًا بالمقالِ سمحًا كريمًا   لم يشُبْهُ هجوٌ ولا إيذاءُ

وقال شوقي نفسه في أدَبِ السيرِ والحديث:

وكُنْ في الطريقِ عفيفَ الخُطى   شريفَ السماعِ كريمَ النَّظَرْ

وقد طبَّق هذه القاعدةَ على شعرهِ، فخلت قيثارتُهُ من وتَر المجون والهجاء، مكتفيًا بالأوتار الأخرى التي تغنَّى عليها، وقد جمعها في قوله:

والشعرُ ما لم يكنْ ذكرى وعاطفةً   أو حكمةً فهو تقطيعٌ وأوزانُ

فنظم في سلك قصائدِه ذكرى الماضي، وعاطفةَ الحاضر والمستقبَل، والحكمةَ الخالدةَ المشتركة بين كل زمان، هذا هو الشعرُ لا تقطيع وأوزان.

نقفُ عند هذا الحدِّ من عَرْضِ الأنغام التي بعثها شوقي من قيثارةِ الشعر، ولو رجعتم إلى دواوينهِ ورواياتهِ لوجدتم الكثير، غير ما استشهدنا به، مما كان يصحُّ إيرادُهُ على سبيل الاستشهاد؛ فهناك منجمٌ من الألماس غنيٌّ، مهما نغترف منه يبقَ فيه القدرُ الوفير، فقريحةُ شوقي قريحةٌ خصبةٌ جوَّادةٌ فيَّاضة، امتدَّت شِباكها إلى مختلفِ الحوادث والشئون، فعادت منها بكرائم المعاني في حرائر الألفاظ؛ فكان شعرُهُ بجملتهِ سِجلًّا للتاريخ قديمهِ وحديثه؛ نظمَ الكثير من وقائع التاريخ القديم شعرًا فخمًا، رصَّعه بالمواعظ والعِبَر، ودوَّن معظم حوادثِ التاريخ الحديث فصوَّر أبطالها تصويرًا يخلِّدُ منهم الأثر، فكان له القدحُ المعلَّى في الشعر السياسي والشعر القصَصيِّ، أما قالوا قديمًا: إنَّ الشعراءَ حَفَظَةُ الآثار، ونَقَلَةُ الأخبار؟ وكثيرًا ما عمد إلى التاريخ يتَّخذه منبرًا، فيقف على أعواده معلِّمًا أو منذرًا: «ربَّما علَّم حيًّا مَنْ غَبَرْ.»

ولقد كنا نتمنَّى أن تُشرَح قصائدُهُ شرحًا تاريخيًّا يشتمل على بسط ما فيها من عوامل السياسة، ومن الإشارات إلى حوادثِ عصره لئلَّا تفوتَ مراميها من يطالعُها في آتِي الزمن.

وكان شوقي كثيرَ المطالعة والدرس، يُمهِّدُ بهما لما يريد نظمه، خذوا مثلًا قصيدتَه في «شكسبير» وقصيدتَه في «أرسطو»، تجدوا فيهما خلاصة مطالعةٍ دقيقة لروايات شاعر الإنجليز وفلسفة حكيم الأغارقة، ويبدو أثرُ هذا الاطلاع الواسع حتى في القصائد التي كانت بِنْتَ يومِها؛ فإنَّه كان يغذِّيها بما ادَّخره في خاطرهِ من قبل.

وعلى هذا المنوالِ كان يتخيَّر موضوعَهُ فيحتضنه يومًا أو شهرًا في ذهنِه، فيكسو المعاني وشيَ الكلام في فكرهِ، ثمَّ يُمْلي قصيدتَه بألفاظٍ كيِّسة، عَذبةِ الإيقاع منسجمة الاتساق، فكأنه لا يعبِّر عن معانيه تعبيرًا، بل يُغنِّيها غناءً يتملَّكُ اللبَّ ويستولِي على الشعور، حتى إنه كثيرًا ما تُنسينا طلاوةُ الألفاظ، وحُسنُ توقيعِها في التركيب دقائقَ المعنى وبدائعَ التفصيل، فيتزلَّف نظمُه إلى الآذان فيطربها كما تُطرب الألحان، ويُحدِثُ في القلوب نشوةً كنشوةِ بنتِ الحان، وكم له من القصائد تستهوِي السامعَ دون تعليل هذا الاستهواء، فإذا طُلِب إليه أن يتخيَّر منها بيتًا أو مقطعًا ما درَى ما يختار، وكم رأينا من الذين لا يتذوَّقون الشعر يطرَبون لشعر شوقي طرَبَهم للموسيقى، وهم في ذلك على حدِّ قول أبي تمام:

ولهم أَفهمْ معانيها ولكن ... رَوَت كبدِي فلم أَجهلْ شجاها

أمَّا جودُ قريحتِه فيتجلَّى في كثرة ما نظم، وفي طَرْقِهِ الموضوعَ الواحدَ في أكثر من قصيدة، وهو في كلِّ مرَّةٍ يجيءُ بالطريف الجديد، كما يتجلَّى هذا الخصبُ في مدَى العشرات من قصائدِه التي تؤلِّف رواياتٍ كاملة، فما كان ينتهي من قصيدةٍ حتى يُعالج غيرها، وكأنَّه قد نسي الأُولى، فكان خاطرُه كالروض في الربيع يجود بالزهر متتابعًا، ويُنضج الثمرَ متعاقبًا، أو كالبلبل يتوالى تغريده:

نَغَمٌ في السماءِ والأرضِ شتَّى   من معاني الربيعِ أو ألحانِهْ

فانقاد لهُ النظم وأسلس قيادَه، وجرى الشعر على لسانه مجرى الكلام فتكاد لا تقرأُ من نثره بضعةَ أسطرٍ حتى تجد بيتًا أو شطرًا، فحقَّ له أن يقولَ:

إذا قلتُ شعرًا فالقوافي حواضرٌ

كما قال قديمًا الشاعرُ اللاتيني أوفيد:

كلُّ قولٍ حاولتُه كان شعرًا[٢٠]

ومن مظاهر هذا الخصب في القريحة واستنباط المعاني أنه طرق أبعد الموضوعات عن الشعر فاستخرج منها شعرًا طيِّبًا، كالنحلة تشتار عسلها من جميع أنواع الزهر، من ذلك قوله في طابع البريد:

ويُوافِي النفوسَ مني رسولٌ   لم يكن خائنًا ولا نمَّاما
يَحْملُ الغشَّ والنصيحةَ، والبغـْ   ـضاءَ والحُبَّ، والرضى والمَلاما
ويعِي ما تُسرُّهُ من كلامٍ   ويؤدِّي كما وعاهُ الكلاما
ولقد أُضحِكُ العبوسَ بيومٍ   فيهِ أُبكِي المنعَّمَ البسَّاما
وأُهنِّي على النوى وأُعزِّي   وأُفيدُ الحرمانَ والإنعاما

---

[٢٠] Quidquid tentabam dicere versus erat (OVIDE).

وقوله في وصف يدِ الطبيبِ الجرَّاح:

مدَّها كالأجَلِ المبسوطِ في   طَلَبِ البُرءِ اجتهادًا وافتنانا
تَجِدُ الفولاذَ فيها مُحسنًا   أخذَ الرفقَ عليها والليانا
لم تَخِطْ للناسِ يومًا كفنًا   إنما خاطت بقاءً وكيانا

ولما أُعلن، عند إنشاء بنك مصر، أنْ ستُنشَد في الاحتفال قصيدةٌ لشوقي، سمعنا الكثيرين يقولون: «أين مجالُ الشعر مع ورَق النقد والمال؟ وأيُّ مرتعٍ في المادة للخيال!» ولكنَّ شاعرَنا عرف أن يستنبطَ من المادَّة مثلَ هذه الأبيات:

بالعلمِ والمالِ يبنِي الناسُ ملكهمُ   لم يُبنَ ملكٌ على جهلٍ وإقلالِ
هاتوا الرجالَ وهاتوا المالَ واحتشدوا   رأيًا لرأيٍ ومثقالًا لمثقالِ
هذا هو الحجَرُ الدرِّيُّ بينكمُ   فابنوا بناءَ قُرَيْشٍ بيتَها العالي
دارٌ إذا نزلت فيها ودائعُكم   أودعتمُ الحَبَّ أرضًا ذاتَ إغلالِ
آمالُ مصر إليها طالما طمَحَتْ   هل تبخلون على مصر بآمالِ

فإذا كان قد جارَى القدماءَ وحذا حَذوَهم في صياغة الشعر، وفي طرازِ مطالعه وأسلوب مقاطعه، فقد رأيتم كيف راض بحورَ القريض على أداءِ المعاني الجديدة ومعالجةِ الموضوعات العصرية، ولذلك قلنا — في مستهلِّ هذا البحث: إنه لم يشدَّ إلى قيثارة الشعر وترًا جديدًا، ولكنَّه استخرج من الأوتار التي ضرب عليها غيره من الشعراء أنغامًا مستجدَّةً عذبة المستمع، ولقد رأينا أمثلةً كثيرةً على ذلك في ما استشهدنا به له من الأبيات، وكثيرًا ما أصبح القديمُ جديدًا بفضل ما أكسبه من جمال اللفظ والتركيب، وروعة المعنى الذي ظهر بمظهر التجديد.

ولم يذهلْ شوقي عند هذا التجديد الذي شغف به الكثيرون فاتخذوه لهم شعارًا، قال:

طلعوا على الوادي برايةِ عصرِهم   ولكلِّ عصرٍ رايةٌ وشعارُ

ولكنه أراد هذا التجديدَ مقرونًا بالأناة والتُّؤدة:

ومع المجدِّدِ بالأناةِ سلامةٌ   ومع المجدِّدِ بالجماح عثارُ

فإن في الداعين إلى هذا المذهب من لا يفهمه إلَّا قائمًا على الهدمِ والتقويض، وليس لديهم شيءٌ من مُعدَّاتِ البناء والتشييد، فعلى مثل هذه الطائفة يحملُ الحملةَ الشديدة:

لا تحذُ حذوَ عصابةٍ مفتونةٍ   يجدونَ كلَّ قديمِ شيءٍ مُنكرَا
ولو استطاعوا في المجامع أَنكروا   من مات من آبائهم أو عمَّرا
من كلَّ ماضٍ في القديمِ وهدمِهِ   وإذا تقدَّم للبنايةِ قصَّرا
وأتى الحضارةَ بالصناعةِ رَثَّةً   والعلمِ نزرًا والبيانِ مثرثرًا

بسطنا في ما تقدَّم صورةً لأميرِ الشعراءِ اقتبسنا الأَلوانَ والخطوطَ اللازمةَ لرسمِها من أقوالِه، وتحليلِ شاعريتِهِ، وبيان مُميِّزاتها، وإذا كان هناك مِن نقصٍ أو عيب، فالذنبُ ذنبُ المصوِّر لا ذنب الأصل، ولقد تكون هذه الصورة أكملَ دلالةً وأَجلى رونقًا إذا قارنَّاها بغيرها، فقد فُطر الإنسان على حبِّ المقارنة فلا يدرك كُنه الأشياءَ إلَّا عن طريقها، وهذا صحيحٌ في المعنويات صحَّته في الماديات، وقد نكونُ أكثرَ من سوانا شغفًا بذلك عندما نتكلَّم عن أدبائنا وشعرائنا؛ فكلُّ أديبٍ أو شاعرٍ في نظرنا يمتُّ بنسبٍ إلى أحد الأدباء الأقدمين؛ وما كتب أحدٌ عن شوقي إلَّا قارنه بأحد أعلام الشعر الغابرين؛ فهو وأبو تمام في حسن الديباجة نظيران، وهو وجرير في براعة التمدُّح بالأمراء صنوان؛ وهو المتنبي في الحكم كفؤان؛ وهو وابن هانئ في الفصاحة مِثلان، ألم يُطلق اسمه على داره؟ وهو والبحتري في جودة الصناعة ندَّان، ألم يقل هو نفسهُ عن نفسه:

إن الذي قد ردَّها وأعادَها   في بردتيك أعادَ فيَّ البحترِي

وقد أعاد ذلك في معارضته لإحدى قصائد صبري باشا:

وتعارضتْ فيك القرائحُ وانبرى　　　لأبي نواسَ البحتريُّ المفلِقُ

ولا شكَّ أن في شِعره شيئًا من جميع هؤلاء.[٢١]

وقد تخطَّى بعضُ البحَّاث أُدباءَ العربِ إلى أُدباءِ الفرنجة، فرأوا فيه من فيكتور هوجو ولامَرتين وألفرد ده موسِّه، وهم أمراءُ الشعرِ في فرنسا يوم كان شوقي يطلبُ العلمَ في باريس.

وإذا كان قد حذا حذوَ هؤلاء وأولئك من شعراءِ الشرقِ والغرب في بعض مناحِي النظم، فإنه يكاد يكون في مظاهرِ حياتِه وشاعريته صورةً أمينةً لشاعر عريقٍ في القِدَم، عاش منذ أربعة وعشرين قرنًا، وفي بلدٍ غير البلاد العربية، ولكنَّ الشعرَ كالعلمِ لا يحصره زمن، ولا يحدُّه وطن، فنتاج الفكرِ الإنسانيِّ مشتركٌ بين المفكِّرين، مهما اختلف جيلهم وإقليمهم.

ازدهرت مدنيَّة مصر في أقدِم عصور التاريخ المعروفة، فكانت أصلًا لسائر المدنيات، ثمَّ كان لمدنيَّة قدماءِ اليونان وآدابهم من الأثر في تمدين سائر الأمم ما كان قبلها لآداب مصر، ولم يوفَّق العلماءُ لإماطة اللثام عن جميع أسرار الحضارة المصرية لنتعرَّف تمام أثرها في آداب اليونان، ولكنه أثر بليغ ثابت، ثمَّ عادت مصر، على عهد البطالسة، تقتبس من الآداب اليونانية، كما أخذ العرب في العصر العباسي ينقلون عنها، وهكذا العلم والأدب مداولة بين الأمم والشعوب.

لذلك خطر ببالنا، ونحن نطالُع شعرَ شوقي، اسمُ شاعرٍ يوناني، بل إنَّ شاعرَنا هو الذي أوحَى إلينا بهذا الخاطر لكثرة ما يُشير في شعره إلى اليونان وعلاقتهم بمصر وبالعرب:

ورأينا مصرًا تُعلِّمُ يونا　　　نَ، ويونانَ تُقبِسُ العلمَ مصرا

---

[٢١] ترى فيه من نسج البحتري، ومن صياغة أبي تمام، ومن وثبات المتنبي، ومن مفاجآت الشريف، ومن مسلسلات مهيار (خليل مطران).

تلك تأتيك بالبيانِ نبيًّا عبقريًّا، وتلك بالفنِّ سحرا

ذلك شأنُ العلم، وذلك شأن اللغة أيضًا:

فتجارَتِ اللغتانِ للـْ ـغاياتِ في الحَسَبِ الصميمْ
لغةٌ من الإغريقِ قيـِّ ـمَةٌ وأُخرى من تميمْ

وكذلك شأن العلماءِ والأُدباءِ من الفريقين:

أَبُقْراطُ مثُل ابنِ سينا الرئيسِ وهوميرُ مثلُ أَبِي الطيِّبِ

ولكنَّ المصريين كانوا البادئين:

مشَتْ بمنارهم في الأرضِ روما ومن أنوارِهم قَبَسَتْ أثينا

وهو يفاخر بظفره بحكمةِ اليونان:

ظفرت بيونانَ القديمةِ حكمتي

وقبل كل هذا ألم يَقُلْ في ترجمة حياتِهِ بعد أن ذكر أصول جدوده لأبيه وأُمِّه: «أنا إذن عربيٌّ، تركيٌّ، يونانيٌّ، جركسيٌّ، أُصولٌ أربعة، في فرع مجتمعة، تكفله لها مصر كما كفلت أبوَيهِ من قبل.»

أمَّا هذا الشاعر اليوناني الذي نرى صورتُهُ ماثلةً في فقيدنا فهو الشاعر «بَندار».

لَمحةٌ إلى حياتِه تُرينا الشبَهَ بين الشاعرين:

كان بندار في عصره، كشوقي، يلقَّب بأمير الشعراء، وكانت إمارة الشعرِ قبله معقودةً دائمًا لأثينا، حتى انتزعها منها وجعلها في مدينة «ثيبه» وطِنِه، وقد أغدق عليه الأقيالُ والحكام العوارفَ والنعم، فنهج نهجَ الشعراءِ ممتدحًا بمآثر أولياءِ نعمته، غير أنه لم يُحجم في مدائحه عن التنديد بالظلم، والاستبداد معلنًا أنَّ الفضيلةَ والاستحقاقَ

هما، دون سواهما، من الخيرات الباقيات، وكان أدبُه أدبًا عفيفًا طاهرًا شريفًا، وامتاز شعره بالانسجام والنصاعة والجلال، ولقد تغنَّى بوطنه ومفاخره، ولكن ذلك لم يصرف نظرَه عن عيوب مواطنيه ومحاسن سائر الأوطان، وجاءَ في الأسَاطير المنقولة عن عصره أنَّه كان نائمًا، وهو طفلٌ، تحت شجرة، فأقبل النحل على ثغره يقطر فيه عسلًا، وذلك رمزُ العذوبة والحلاوة في شعره، أمَّا موته فقد حسده عليه جميعُ الشعراء، فقد أدركته المنية، وهو في المسرح، بينما كانت العذارى ينشدنَ شعرَه، والشعب المحتشد يُصفِّق طرَبًا.

وكذلك كان شوقي في حياته، وفي مماته أيضًا؛ فكلُّنا يعرف أنه في الليلة التي فارق فيها الحياة كانت إحدَى المغنيات الشهيرات تُغنِّي قصيدته: «علَّموهُ كيف يجفو فجفا»، وكان الجمهورُ يُهلِّل ويكبِّر لروعة الشعر، وبعد وفاته ببضع ساعاتٍ كان شبابُ مصر يُصفِّق متحمسًا لآخرِ قصيدة نظمها شوقي لتحية همة الشباب في حفلة مشروع القرش …

والآن وقد مات شوقي بعد أن مات حافظ، فإنَّ الناسَ يتساءلون عن مصير الشعر العربي … ومن يُنكر أنَّ هذا الشعرَ قد مُني بخسارةٍ فادحةٍ بموت الشاعرين الكبيرين، خسارة شعرت بها مصر أكثر من سواها؛ لأنَّهما أجلساها الصدر في دولة الأدب، وشعرت بها مع مصر سائر الأقطار العربية؛ لأنَّهما كانا من مفاخر لسان العرب.

أمَّا التنبؤُ بمن سيخلف كلًّا منهما في المكان الذي تبوَّأه في مملكة القريضِ والبيان، فليس من السهل ولا بالمستطاع، فشاعرُ مصر، بل شاعرُ العرب، مكنونٌ في ضمير الغيب قد تُبرِزُه الحوادثُ في غدنا القريب، ولا يعزبنَّ عن البال أن ما أدركهُ كلٌّ منهما من الشهرةِ، وبُعدِ الصيتِ قد يكون طمس عبقرياتٍ كثيرة، ستنزل إلى الميدان بعد أن خلا من فارسيه المعلمين، كما أن ما أصابه كلاهما من المنزلة الرفيعة في حياته، والإشادة بذكره بعد مماته، سيشحذُ القرائح والأذهان للمباراة في حلبة الشعر.

وليس من الحكمة والمنطق في شيء أن نندبَ الشعرَ والأدبَ بعد فقد ذَينك الشاعرَين، فالوادي الذي أنجب البارودي وصبرِي وحافظ وشوقي — ولا أذكرُ إلَّا الأموات الذين عاصرناهم — سيُنجبُ غيرَهم من عباقرةِ الشعرِ وأعلام الأدب، فمشعلُ الشعرِ لا ينضب

زيته ولا يطفأُ نورُه، بل ينتقل دائمًا من يدٍ إلى يد، تغذِّيه القلوبُ النابضة والنفوسُ الحسَّاسة، وخيرُ ما يُقال في هذا المقام هذه الأبيات لشوقي:

قديمُ الشعاع كشمس النهارِ جديدٌ كمصباحِها المُلهَبِ
أَبُقْراطُ مثلُ ابن سينا الرئيسِ وهوميرُ مثلُ أبي الطيِّبِ
وكلهمُ حجرٌ في البناءِ وغرسٌ من المثمِرِ المُعقِب